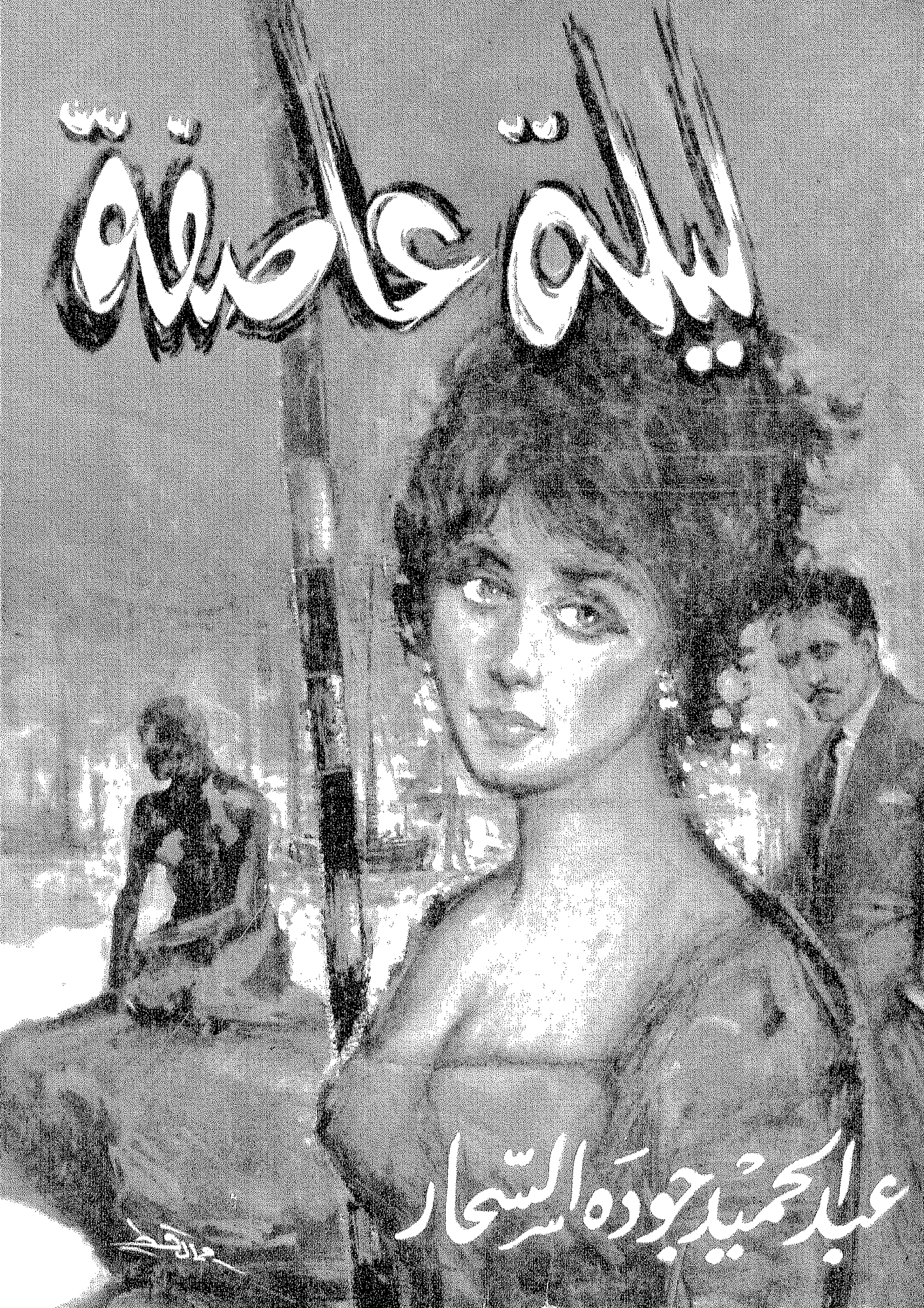

ليلة عاصفة
عبد الحميد جوده السحار

ليلة عاصفة

تقابلا في روما

عاد طاهر إلى مقعده فى الطائرة ، بعد أن استراح فى مطار أثينا واشترى بعض هدايا لناهد . واستأنفت الطائرة رحلتها إلى روما ، واسترخى فى مقعده وشرد ، وراحت مشاهد قصته مع ناهد تمر فى ذهنه بأدق تفاصيلها ، وما كانت تتجسم له لأول مرة فى هذا النهار ، ولكنها لم تبرح خياله منذ عقد العزم على أن يسافر إلى روما لمقابلتها بعد ثلاث سنوات من فراقهما ..

كان ما يزال طالبا فى الجامعة ، وقد رآها أول مرة فى فناء الجامعة مع أترابها فأحس كأن مغناطيس روحها يجذبه إليها . لم تكن أجمل الفتيات ، ولم تكن تتمتع بحسن صارخ يلوى العنق ويبهر النظر، ولكنه وجد روحه تهفو إليها ، وقلبه يخفق خفقا لذيذا منعشا عندما تقع عينه عليها .

واعتقد أن ذلك عرض زائل ، ولكنه لما دخل فراشه ألفى نفسه يفكر فيها وهو نشوان ، يلوك صورها فى خياله وهو يستشعر تلك اللذة التى يحسها الجائع وهو يلوك أول ما يدخل فمه من طعام .

وانطلق فى البكرة إلى الجامعة ، ينقب عنها فى كل مكان . راح يجول حول أبنية الجامعة ويجوس خلال قاعاتها ، وذهب إلى الباب الكبير أكثر

من مرة ، ودقت الساعة دقاتها العالية ، ولكن دق قلبه كان يطفو فى أذنيه على كل صوت حتى يغمره . وأخيرا لمحها قادمة وحدها فى الطريق الواسع القادم من ناحية الترام ، فسرى فيه خوف هادئ لذيذ ، ورقص قلبه رقص عربيد ، ووسوست له نفسه أن يتقدم إليها ، ولكنه تسمر فى مكانه وجعل يرنو إليها وهو سعيد .

ومرت به دون أن تحس وجوده ، ولكن كل خلجة فيه أحست كأن ريشة نعام تدغدغها ، وأن نسائم الصبا هبت عليها ، وأن عوالم فسيحة من السعادة تفتحت أمامها تفتح الورود لندى الصباح .

وجعل يفكر فى وسيلة تدنيه منها ، إنه فى السنة النهائية وهى لم تطأ أعتاب الجامعة إلا هذا العام ، أيذهب إليها ويسألها أن تعيره كتابا لليلة واحدة ، يراجع فيه بعض المواد التى غابت عن ذهنه منذ كان فى السنة الأولى ؟ ولكن أين ذلك الكتاب المقرر على السنة الأولى الموصول الصلة بمحاضرات السنة النهائية ؟ ولماذا هذا اللف والدوران ؟ لماذا لا يذهب إليها يحييها ويحادثها محادثة الزميل لزميلته ؟ آه لو لم يكن قلبه خفق بحبها إذن لكل ذلك أمرا ميسورا ، إنه يهاب أن يتلعثم أو يتصرف تصرفا خاطئا غير مقصود فيقضى على الأمل الدفىء الذى اشتعل فجأة فى أغواره لينير له طريق حياته .

وعاش يفكر فى الوصول إليها ، وتعطلت فى نفسه مشاكل الحياة كلها إلا مشكلة ربط أواصره بأواصرها ، ولم يطمئن إلى تدبير ، وفجأة واتته فرصته مصادفة ، إذ لمحها واقفة فى ثلة من الزملاء وقداح الحديث

تدور بينهم ، وكان بين الشلة أحد أصدقائه فذهب إليه وحياه ، ثم حيا الجميع تحية خاطفة ، والتقت عيناه بعينيها برهة كانت من أحفل لحظات حياته بالمتعة .

وراحت تتحدث مع المتحدثين ، وهو يصيخ سمعه لصوتها الذى يتردد فى جنباته تردد الناى فى معبد ، وقد هامت روحه فى دنيا مترعة بالمشاعر الرقيقة الهفهافة المتدفقة من عين صافية .

وعاد إلى البيت فى ذلك اليوم خفيفا كالطيف ، رقيقا كالنسيم ، كل ما يراه جميل ، وما يصل إلى أذنيه عذب ، وما يحسه نشوة ، وما يخفق بين جنباته لذة ، وما يسرى فى عروقه خمر ، وما يتدسس إلى ذهنه صفاء ، فهو محب أشرف على ربى الحبيب .

وفى الصباح كان يرصد محطة الترام التى ستهبط فيها ، وكان كلما لمح طالبة هابطة خفق قلبه فى شدة ، وأرهفت حواسه ، وزاد تردد أنفاسه سرعة ، واتسعت عيناه ، حتى يعود إليه هدوؤه المغلف بقلق ممزوج بلذة ، يسبح فى أبخرة منبعثة من مجمرة نشوته .

وشعر بمقدمها فؤاده قبل أن تتبينها عيناه ، فإذا بقلبه يقفز حتى يكاد يفر من فيه ، ثم يهبط حتى يصل إلى أقدامه . وفر بعيدا ، وسار فى الطريق الجانبى زائغ البصر لا يستقر له قرار ، وراحت مشاعر كثيرة غزيرة تتدفق فى أعماقه حتى كاد يختلط عليه أمره ، وراح يلم أطراف شجاعته التى تبددت تبدد الظلام إذا ما بهره النور .

وخفف من خطوه وهو يرقبها ، إنها تدنو منه ، ولو عرج من الطريق

إلى الطريق الرئيسى لالتقى بها ، ولبدا ذلك مصادفة غير مدبرة ، ولم يكن ذلك أمرا هينا ، فراح يقاوم الضعف الذى استسلمت له حصون نفسه ، وحمل عليه حمله صادقة ، حتى إذا بدأت هزيمته لم يتريث حتى يجمع فلوله ، بل عرج إلى الطريق الرئيسى وأصبح أمامها وجها لوجه ، وسدت سبل النكوص على الأعقاب .

قال وهو يبتسم ابتسامة عذبة :

— صباح الخير .

— صباح النور .

وسارا جنبا إلى جنب يتحدثان حديثا عاديا لا جاذبية فيه ، ولكن بلابل نفسه كانت تشدو ، فملأت الكون كله طربا وحبا ، وكست كل ما يمد إليه بصره روعة وجمالا وسحرا حلالا .

وراحت الأيام تمر ، والعلاقات بينهما تزداد توثقا ، ودعاها إلى السينما مرة ، وخرجا إلى الجزيرة معا ، ثم تطورت الصلة بينهما إلى حب عارم جارف ، وأصبح كل منهما لا يطيق أن يبعد عن الآخر يوما واحدا .

وانتظرها ذات يوم قبل امتحانه النهائى فى حديقة جروبى ، وجعل ينمق ما سيقوله لها ، فقد عزم على أن يتخذ أخطر قرار فى حياته ، ذلك القرار الذى سيشده إلى الأبد إلى امرأة بعينها ، ولمحها مقبلة . فقام يستقبلها باشا مرحبا .

وجلسا يتبادلان النظر فى صمت . ولكن حديث العيون كان أفصح



إنها تدنو منه ، ولو عرج من الطريق الجانبى
إلى الطريـــق الرئـــيسى لالتقـــى بها.

من كل بيان . وأخرج علبة سجائره وناولها سيجارة وأخذ أخرى ، وأشعل لها سيجارتها ثم أطفأ عود الثقاب فى حركة عصبية ، وأخرج السيجارة من فمه وقال :

ـــ سنتزوج يا ناهد ، لم أعد أطيق بعدك عنى لحظة . طيفك يلازمنى فى خلواتى ، فى غدوى ورواحى ، فى ساعات غفونى ، وفى أوقات يقظتى ، صورتك فى كل كتاب ، فى كل ما أمد إليه بصرى ، قائمة فى ذهنى ، منقوشة فى قلبى ، مسيطرة على وجدانى . إننى بدونك عدم ، أنت نهر الحياة المتدفق فى حياتى ، النسائم الباردة فى سعير زمنى ، الواحة الظليلة فى صحراء وجودى ، النبض المتردد بين جوانحى .

بعد أن ينقضى الامتحان سأقدمك إلى أهلى ، سأقول لهم : ناهد زوجتى ، شريكة حياتى ، حبيبة فؤادى ، درعى فى الحياة .

وأطفأت سيجارتها وهى ترنو إليه فى وجد ، ثم انبثقت فى عينيها لؤلؤتان .

وتعاقب الليل والنهار وما تسرب إلى نفوس الناس الملل ، فقد كانت تغمر قلوبهم الآمال.، وانقضى الامتحان وتخرج طاهر فى الجامعة ، وأخبر أمه أنه عزم على الزواج ، وأنه اختار زوجته وسيقدمها لها .

وجاء إلى البيت وناهد فى يده ، تستشعر رهبة خفيفة تنتشر فى أعماقها ، فقد كانت مقدمة على أدق اختبار ، ولم تخف مخاوفها بل قالت له لتطمئن نفسها :

ـــ لم أحس مثل هذا الخوف فى أثناء الامتحان .

فضغط على يدها فى حنان ولم ينبس بكلمة .

وقادها إلى غرفة الاستقبال ، ثم تركها وخرج ، وسرعان ما عاد وأمه معه وقال فى انشراح :

ـــ أمى .. ناهد .

وصافحت الأم الفتاة وعيناها تتجولان فيها سريعا ، ثم قالت وهى تجلس :

ـــ تفضلى .

وجلسوا يتحدثون ، وفتحت ناهد حقيبتها وأخرجت علبة سجائرها ، وسحبت سيجارة بأناملها وراحت تشعلها ، فتغير وجه الأم ، ولم تفطن ناهد إلى ذلك ، ووضعت ساقا فوق ساق ، ووقعت عين الأم الفاحصة على بطن فخذها فاستشاطت غضبا ، ولم تستطع أن تكبت ثورتها فقامت وغادرت المكان منفعلة .

وشعرت ناهد أن الأم تركت المكان محتدة ، فراحت تنظر إلى طاهر نظرات كلها قلق ، ولم تفطن إلى ما ساءها . وانتزع طاهر من شفتيه ابتسامة لينزل السكينة بقلبها ، وإن كان القلق قد انتشر فى أرجائه .

وقام مستأذنا وانسحب إلى حيث ذهبت أمه ، وكان يخطو متمهلا وإن كانت الثورة متأججة فى نفسه ، وما أن وقعت عينا أمه عليه حتى صاحت .

ـــ هذه قد تصلح أن تكون راقصة ، أما أن تكون زوجة ابنى فلن يكون هذا أبدا .

ـــ إننى أحبها وسأتزوجها .

ـــ إن تزوجتها فلن تكون ابنى ، سأتبرأ منك ليوم القيامة .

ـــ أنت قاسية .. ظالمة . لماذا تهدمين بمعاولك فتاة طيبة ليس لها جريرة إلا أنها أحبت ابنك ، وأحبها ابنك ؟

فقالت فى صوت كالرعد :

ـــ لو كانت طيبة لما جاءت مع شاب إلى بيته دون علم أهلها ، ولما قبلت أن تعرض فى سوق الدلالة كالسبايا .

ـــ أمى .. هذا كفر .. هذا حرام .

واحتدم النقاش بينهما ، واندلع لهيبه ، وبلغ مسامع ناهد ما كانت الأم تتفنن فى صبه على رأسها من سباب واتهامات ، فقامت حانقة تغادر المكان كعاصفة هوجاء .

وعاد طاهر إلى غرفة الاستقبال والشرر يتطاير من عينيه ، والغضب يأكل صدره ، ولم يجدها فزادت ثورته ضراما ، وخرج إلى الشارع يعدو وراءها ، ولكن لم يعثر لها على أثر .

وطفق يبحث عنها فى كل مكان يعرفـ ... وره دون جدوى واستبد به قلقه وراح وجده يعذبه ، وأخيرا ذهب إليها فى بيتها ليطفئ لهيب اللوعة التى تؤرقه وتحز روحه . ولكنه علم أنها سافرت مع أهلها إلى الإسكندرية تمضى الصيف هناك .

وخطر له أن يسافر وراءها ، ولكن العمل الجديد الذى التحق به لم يكن يسمح له أن يغادر القاهرة ، لينقب عمن تركته يتلظى بنار الوجد

والحرمان .

وتقضت أيام الصيف وهو يعلل النفس باللقاء والعتاب والصفاء ثم بحياة هانئة سعيدة ، بعد أن أفلح فى إلانة قناة أمه التى كانت تقسم بأغلظ الأيمان أنها لن ترضى عن هذا الزواج أبدا .

واستقبلت الجامعة عاما جديدا ، وانطلق طاهر إلى هناك ليقابل ناهد ، ويعتذر لها عما كان ، ويمسح جرح نفسها ، ويخبرها أن أمه ذاهبة إلى أهلها لتخطبها له منهم ، لعل ذلك يرضيها ، ويكون كفارة لما بدر منها فى حقها .

وجعل ينقب عنها هنا وهناك دون أن تقع عليها عيناه ، ولمح بعض صواحبها فاتجه إليهن وقال :

— أين ناهد ؟ ألم تأت بعد ؟

فقالت إحداهن :

— سافرت .

فقال فى لهفة :

— إلى أين ؟

وكأنما لذ لها أن تعذبه ، فجعلت تقطر له النبأ قطرة قطرة :

— إلى الخارج .

فقال فى شىء من الحدة والضيق :

— إلى أين ؟

— إلى إيطاليا .

— لماذا ؟

— لتكمل دراستها هناك .

ودارت به الأرض ، وأظلمت الدنيا فى عينيه ، وأحس كأن أثقال العالم تكاد تنقض ظهره ، وأن صدره بات مستودعا للمرارة والأسى . وكاد يركن إلى يأسه ، ولكن بصيصا من الرحمة تسلل فى ذلك القتام وهداه السبيل ، راح صوت حنون يهمس فى أذنيه أن عليه أن يعمل ، وأن يجد فى عمله حتى يجمع من المال ما يمكنه أن يذهب إليها هناك فى إيطاليا يعلن لها عن أسفه ، ويحدثها عن لهيب الجفاء الذى تلظى فيه سنى الحرمان ، ثم ينبئها أنه قد تطهر وأصبح جديرا بالجنة التى تنتظره .

واندمج فى عمله وأفنى فيه نفسه ، وطيفها ينفث فيه العزم ، ويمده بقوة طاغية . وما انقضت ثلاث سنوات حتى حقق نصف حلمه ، وأصبح معه من المال ما يكفى لسفره وأوبته ، وإتمام زواج سعيد ، وتهيئة عش هانئ ترفرف الطمأنينة عليه بجناحيها .

إنه فى طريقه الآن لتحقيق أمله ، وإرواء ظمأ نفسه ، وتغذية فؤاده الذى كاد يتلفه جفاف الحرمان بحنانها الدفاق الذى يغرس فيه الحب ، ويضفى على كل ما فى الكون هالات الحسن والجمال .

وهبطت الطائرة فى مطار شيامبينو ، ونزل إلى الأرض ، واستقبلته المضيفات الإيطاليات ينطقن الإنجليزية بلكنة أمريكية ، وسار مع من ساروا إلى الجمرك . وسرعان ما انتهى من الإجراءات ، واندس فى السيارة التى ستنقله إلى قلب روما .

وانسابت السيارة فى طريق على جانبيه خضرة ، وعن يساره قضبان المترو ، وفى سمائه سحب خفيفة ، وقد راحت ترعى فى المراعى الخضر بعض قطعان الضأن، و لم يحفل بالمشاهد التى راحت تتتابع أمام عينيه ، فقد كان مشغولا عنها بالأفكار التى كانت تنبض حية فى رأسه .

ووقفت السيارة فى الشارع المنحدر المزدحم بالسيارات على جانبيه ، المنطلق إلى ميدان بربارينى ، ونزل من فيها واتجهوا إلى مكتب شركة مصر للطيران ، وراحوا يتسلمون حقائبهم . أما هو فقد راح يسأل عن رقم تليفون المركز الثقافى بسفارة الجمهورية العربية المتحدة .

واهتدى إلى الرقم وراح يطلبه ، وارتفع صوت من بعيد نبراته عربية :

— ألو .

— أرجو معرفة عنوان الآنسة ناهد رضوان .

— من المتكلم ؟

— قريب لها جاء من مصر لزيارتها .

— لحظة من فضلك .

وانقطع الصوت ، وبدأ طاهر يستشعر غرابة موقفه ، أيعقل أن يأتى قريب من مصر خصيصا لزيارة قريبته دون أن يعرف عنوانها ؟؟ وقبل أن يستسلم لأفكاره جاء الصوت من الطرف الآخر :

— فيا باجليفى رقم ١٧ .

— متشكر . حسبت أنها تركت هذا المنزل .

ووضع السماعة وهو يعجب من نفسه ، لماذا كذب وجعل الرجل يعتقد أنه كان يعرف ذلك العنوان ؟ إنه أحس فى أعماقه ضعف مركزه فكذب ، ولم يكن أمامه فسحة من الوقت لمحاسبة نفسه . فترك حقائبه فى مكتب الطيران ، واندفع فى أول تاكسى قابله وقال :

— فيا باجليفى .

— ولم يعرف كيف ينطق الرقم ١٧ بالإيطالية ، فراح يقول :

— Dix Sept ; Seventeen ، سبعة عشر .

وأخيرا أخرج ورقة وقلما وكتب : 17 .

وانطلقت السيارة به ، وراحت تطوى شوارع مزدحمة قامت فيها تماثيل كثيرة ، ولم يكن يدرى أين يذهب فاسترخى فى مقعده ، ولكن رأسه كان ينبض بالأفكار ، وصدره يخفق بشتى المشاعر والإحساسات .

ووقفت السيارة أمام منزل أشبه بمنازل الإسكندرية فى الشوارع الجانبية ، وهبط من السيارة بعد أن ألقى نظرة على العداد الموضوع داخلها إلى جوار السائق ، وكان قد سجل ٣٠٠ ، فأخرج من جيبه ثلاثمائة ليرة ودفعها إلى الرجل ، ولكن هذا رفض أن يتسلمها وراح يشير بأصابعه الأربع ، وفهم طاهر أنه يطلب أربعمائة ليرة ، ولم يكن يقدر على التفاهم معه ، فنقده ما طلب ثم وقف يتلفت .

ولمح دكان بقال بالقرب من المنزل ، فذهب إليه وقال :

— سنيوريتا ناهد .

ووقف الرجل صامتا برهة وهو ينظر إليه ، ثم قال كأنما أدير فيه زر كهربى أضاء رأسه :

— أوه .. سى سى .. اجيبسيانو .

وتدفق الكلام من فمه و لم يفهم طاهر حرفا ، ولكنه نظر إلى حيث يشير ، وعلم أنها تقطن فى الطبقة الثانية .

وراح يصعد فى الدرج متمهلا ، حتى إذا ما بلغ الطبقة الثانية راح ينقل بصرة بين الأبواب الثلاثة التى أمامه لا يدرى أيها يطرق ، وجعل يتصور موضع الشقة التى أشار إليها الرجل ، ثم تقدم نحو الباب الذى فى الوسط وضغط الجرس وقد بدأ يستشعر رهبة تمشى فى أوصاله .

وفتح الباب ونظرت إليه فتاة إيطالية وقالت :

— سى .

— سنيوريتا ناهد .

وراحت تتحدث بالإيطالية ، وفهم من حديثها أن ناهد فى « الكافيه دى بارى » ، وكأنما أراد أن يتأكد فقال :

— كافيه دى بارى ؟

فقالت وهى تهز رأسها موافقة :

— كافيه دى بارى .

وانطلق التاكسى به إلى كافيه دى بارى . وكانت الساعة تجاوزت الخامسة ، والحياة بدأت تدب فى المقاهى القائمة على جانبى فيافينيتوا . ووقفت السيارة أمام المقهى فإذا بقشعريرة تسرى فى بدنه ، وإذا برهبة

تنتشر فى أرجائه ، وإذا بدقات قلبه تتزايد ونظراته لا تعرف الاستقرار .

وسار بين صفى المقاعد المنتشرة على طول الإفريز وهو يتفرس فى الوجوه . كان يتقدم كالمأخوذ ، أو كالسائر فى حلم من الأحلام ، لا يكاد يحس وجوده ، ولا يكاد ينكر نفسه .

ودوى قلبه بين جنباته ، وتدفقت دماؤه حارة فى عروقه ، وجمد فى مكانه وقد اتسعت عيناه ، إنها هى ، ناهد حبيبة الفؤاد ، لا يفصل بينه وبينها إلا خطوات .

وكاد يهتف باسمها ، وكاد يجرى إليها ، ولكنه جمع أطراف نفسه المشتتة ، وراح يتقدم فى تؤدة ، وإن كانت كل إحساساته قد حطمت أغلالها .

ووقف أمامها ولم يجد لسانه وإن ترقرق الدمع فى مقلتيه ، ورفعت رأسها تنظر ، ولم تصدق عينيها ، ولكن سرعان ما هتفت :

— طاهر .. طاهر ..

وهبت واقفة وطوقته بذراعيها وراحت تقبله فى وله وسعار ، وهو يضمهاإليه وقد انمحق الوجود كله إلا وجودهما . كان هو وهى الدنيا بكل ما فيها من مشاعر وأحاسيس وخلجات .

وأبعدته عنها ونظرت إليه كأنما تتحقق من أن ما تحسه حقيقة وليس وهما من تهاويل الخيال ، ثم عادت تضمه إلى صدرها دامعة العين .

وجلست وهى تجذبه من يده ، فجلس ، ونظرت إليه طويلا ثم قالت :

ـــ أنت هنا . لا أستطيع أن أصدق . متى جئت ؟ وما الذى جاء بك ؟ وكيف أنت ؟ وكيف عرفت أنى هنا ؟

ـــ فقال وقد وضع يده على المنضدة :

ـــ جئت الآن ، وسألت عن عنوانك فى المركز الثقافى ، وها أنا ذا هنا .

ومدت يدها وجعلت تمرر أناملها فى رقة بين أصابعه ، فأحس كأن يدا حنونا تهدهد روحه ، فاستكان فى لذة . وراحا يتحدثان ويهيمان فى عوالم مفعمة بالرقة والحب والصفاء .

قالت وهى تنظر فى عينيه :

ـــ لم تقل لى : ما الذى جاء بك ؟

ـــ أنت . لا أستطيع أن أعيش وأنت بعيدة عنى ، لابد أن نتزوج ! ولن أنتظر حتى نعود إلى مصر . بل سنتزوج هنا فى القنصلية ونمضى شهر العسل فى الريف الإيطالى .

ومالت برأسها حتى التصق جبينها بجبينه وقالت :

ـــ ليتك تعرف كم أنا فى حاجة إليك !

وجعلا يهمسان ويتناجيان ، ثم قالت :

ـــ وأين حقائبك ؟

ـــ فى مكتب شركة الطيران ، لم أبحث عن فندق بعد .

فقالت وهى تضحك :

ـــ فندق ؟ لن تبيت إلا عندى . هيا .

وحملا حقائبة وذهبا إلى البيت وهى تدور فى أرجائه من الفرح كفراشة ، وتغنى أغنية إيطالية دافئة تعبر عن الأحاسيس الفوارة التى تمور فى أعماقها ، وكانت تضمه وتقبله ، ثم تضمه وتقبله ، وقالت :

ـــ ما رأيك فى كأسين من النبيذ الإيطالى ؟

ولم تنتظر جوابه ، بل ذهبت وعادت بصينية صغيرة فوقها كأسان وزجاجة وجعلت تصب النبيذ وهى تنظر إليه فى وله وكأنما تذكرت شيئا فاتها فقالت :

ـــ ألا تخلع هذه الثياب وتستريح ؟

وهمت بأن تنهض تعاونه على رص ملابسه فى الصوان القريب من السرير ، ولكنه التمس منها أن تستمر فيما هى فيه وأن تترك هذا الأمر .

وفتح الصوان ، وإذا به يجمد فى مكانه لا يريم ... وجد فيه بيجامة رجل . وتحركت غيرته وانسدلت غشاوة على عينيه ، وهجمت جيوش القلق والغضب والمقت تعمل أسلحتها الفتاكة فى صدره .

كان على وشك أن يخلع جاكتته ، ولكنه أعادها كما كانت . وفطنت ناهد إلى ما اعتراه من تبدل ، فمدت بصرها ورأت البيجامة ، ولم تفزع ، بل قامت إليه فى هدوء وقالت دون أن تضطرب :

ـــ لابد أن تعرف كل شىء ما دمت قد جئت لتتزوجنى .

وجلست على طرف السرير وراحت تقص عليه قصتها ، قالت :

ـــ جئت إلى روما وحدى ، وعشت مع زميلاتى الإيطاليات لا

أختلط بهن إلا فى ساعات الدرس ثم أعود إلى بيتى ، كان الملل يستبد بى ولكننى كنت أقاومه . وتفتحت عيناى على الرغم منى على دنيا جديدة تختلف عن الدنيا التى عشنا فيها . كانت كل فتاة تتحدث عن فتاها ، عن ساعات الصفو التى قضياها .

ومرت سنتان طويلتان مريرتان وأنا أقاوم الإغراء الذى يحيط بى ، وإن كانت نفسى تهفو إلى ما أسمعه منهن فى الصباح وفى المساء . إننى بشر ، من دم ولحم ، رغباتى ترهقنى ، تستبد بى ، تكاد توردنى موارد الهلاك .

وذات ليلة دعتنى إحدى زميلاتى إلى حفل خاص فى بيتها وذهبت ولم يكن هناك إلا أنا وهى وشابان أجنبيان حضرا إلى روما فى رحلة . وقدمت إلينا النبيذ ، ودار رأسى ولم أشعر إلا وأنا فى الصباح فى فراش واحد مع أحد الشابين ، وقد انتهى كل شىء .

لم يعد هناك ما أخشى عليه ..

وصاح كوحش جريح :

ــ اسكتى .. اسكتى .

ــ بل لابد أن تسمع قصتى ، إنك لا تعرف كم أحس بالراحة الآن وأنا أرفع هذه الأثقال التى جثمت على صدرى سنة.. سنة كاملة انقضت وأنا أتعذب وحدى ، لا أجد من أفضى إليه بمتاعبى .. لم يعد هناك ما أخشى عليه ، انتهى الأمر وأصبحت كزميلاتى ، أصادق هذا مدة حتى إذا سئمنى أو سئمته بحثت عن آخر .

وهويت ، ولكننى لم أكن راضية عن الحضيض الذى وصلت إليه ، كنت أحتقر نفسى ، أتلفت باحثة عن الخلاص ، وجاء إلىّ يعرض علىّ أن ينتشلنى .

ـ من ؟

ـ صاحب هذه البيجاما .

ـ من هو ؟

ـ شاب مصرى .

ـ طالب ؟

ـ لا . إنه يعمل هنا فى وظيفة متواضعة .

واتجه طاهر إلى حقائبه يحملها وهو مطرق . والتفتت إليه وقالت :

ـ ذاهب ؟

ـ نعم .

ـ لماذا ؟

ـ لأننى لا أستطيع أن أتصور أن التى سأتزوجها كانت تنتقل يوما بين أحضان الرجال .

ـ طاهر .. ابق .. أرجوك ، إننى فى حاجة إليك لا تتركنى ، بربك لا تتركنى .

ـ محال .

وهبت واقفة وقالت :

ـ إذا كنت وصلت إلى هذا فأنت السبب ، إننى ضحيتك ..

ضحيتك أنت ..

ووضع يده فى جيبه وأخرج كل ما معه من نقود ووضعها على نضد قريب منه ، ورأت النقود من خلال الدموع التى ملأت عينيها فصاحت فيه :

ـــ إن كنت ذاهبا فخذ نقودك ، لا أريد منك شيئا ، لماذا جئت ؟ أجئت تنكأ جروح نفسى التى اندملت ؟ أجئت تهتك أكفان الماضى ؟ أجئت توقظ ما غفا منى ؟ أجئت تغرينى بأن أشن حربا هوجاء على ذاتى ؟ أن أعذب روحى ؟ ليتك ما جئت ، وليت شمس ذلك اليوم الذى عرفتك فيه ما أشرقت،وليت قلبى قد خرس قبل أن يخفق بحبك . اخرج .. اخرج .

وفتح الباب فى رفق وانسل خارجا وهو مطرق ، ثم عاد وأغلق الباب ، وارتمت ناهد فى الفراش تضربه بيدها فى شدة وتبكى وتنتحب .

وفى صباح اليوم التالى كان طاهر فى مطار شيامبينو ينتظر الطائرة القادمة من زيورخ لتحمله إلى مصر ، وهو مطرق تكاد نياط قلبه تتمزق حزنا وأسى، فقد كان عائدا من مأتم حبه .

مستر كاريكاري

كانوا فى بعثة تجارية تجوب غرب أفريقية ، وراحوا ينتقلون من دولة إلى دولة دون أن يحسوا تغيرا فى الناس أو فى حياتهم الاجتماعية، أو فى العواصم التى كانوا ينزلون بها . كانوا يهبطون فى أحد المطارات ، ثم يستقلون بعض السيارات إلى الفندق الأوروبى الفاخر الذى يشرف على الطرقات المرصوفة المخترقة قلب الغابة الخضراء ومن ثم يتصلون بكبار التجار من الأجانب . فإذا ما جن الليل انطلقوا إلى ملهى ليلى ، يسمعون موسيقى الجاز ، ويشاهدون الرقص الذى كان يعيد إلى أذهانهم الحركات الهستيرية التى تمارس فى حلقات الزار : ويتسلون أحيانا بعد مئات زجاجات البيرة والوسكى التى تخرج من البار .

***

ووصلوا إلى الردهة الداخلية فى أحد الفنادق ، فإذا بتجار سوريين ولبنانيين يخفون إليهم ويرحبون بهم :

ـــ يا هلا .. يا هلا . أهلين وسهلين . مرحبا بروائح مصرنا العزيزة .

وقام عدنان الذى كان فى استقبالهم فى المطار بتعريف أعضاء البعثة

بإخوانهم من التجار السوريين واللبنانيين ، كان الود الصادق يلوح فى وجوههم ، ويتدفق عبارات حارة على ألسنتهم .

وراحوا يتبادلون الأحاديث ويعبرون عن الآمال الجياشة فى الصدور ، وقال قائل :

ـــ أظن السادة أعضاء البعثة فى حاجة إلى أن يستريحوا الآن .

وقام ، وإذا بالآخرين يقومون مستأذنين ، ولم يبق مع القادمين إلا عدنان ، انتظر حتى يطمئن إلى حسن تحقيق رغباتهم .

واتجهوا إلى مكتب الاستقبال ، وكانت المنضدة العالية التى تمثل قطاعا فى دائرة يجلس إليها ثلاث فتيات : اثنتان من الوطنيات ترتديان البياض ، والثالثة خمرية اللون ، شعرها أسود فاحم لم تقصه كالأخريات ولم ترسله إرسالا ، بل كان بين بين ، وقد لفت سوالفها على شكل هلال ، وكانت عيناها كزيتونتين لامعتين فى وسط بياض ، ترتدى ثوبا بسيطا أنيقا يكشف ذراعيها الملفوفتين ، وعقدها الطويل ، وجزءا من صدرها الشامخ .

وراح أعضاء البعثة ينظرون إليها ويتلفت بعضهم إلى بعض وفى عيونهم تعبير واحد ، كان حسنى أول من ترجمه إلى ألفاظ ، قال فى دهش :

ـــ لكأنها مصرية .

وتناولت الفتاة جوازات سفرهم وراحت تملأ البيانات فى الدفتر الكبير المفتوح أمامها ، ثم قالت دون أن ترفع رأسها :

ـــ مفتاح ٢٤٠ ، مفتاح ٢٤٥ ، مفتاح ..

وأسرعت إليها إحدى الفتاتين الوطنيتين بما طلبت وهى تقول :

ـــ تفضلى مس كاريكارى .

وتناول حسنى مفتاح غرفته وقال وهو يبتسم :

ـــ متشكر مس كاريكارى .

وذهب إلى المصعد ، ثم اتجه إلى غرفته وتمدد فى السرير بملابسه ، وشرد ذهنه يفكر فيما شاهده فى البلاد التى مر بها ، فألفى حياته فيها جفافا ، لم تتخللها لحظة نابضة إلا مرة واحدة، يوم كان يكتب تقريرا ، واستأذنت الخادمة السوداء أن يسمح لها بتنسيق الغرفة ، وهم بأن يتركها لها حتى تنتهى منها ، ولكنها قالت له :

ـــ استمر فى عملك يا مستر .. سأنسقها وأنت فى مكانك .

وراحت تعيد تنسيق السرير وظهرها قريب من كتفه ، وانقطعت سلسلة أفكاره فلم يستطع أن يستأنف ما كان فيه ، وقرر أن يستريح حتى تخرج تلك التى اقتحمت عليه خلوته .

وخطر له أن يداعبها فقال :

ـــ متزوجة ؟

فقالت وقد استدارت له ، ولاحت أسنانها البيضاء فى رقعة وجهها كهلال أبيض رسم على لوحة سوداء :

ـــ لا ، ولكننى سأتزوجك أنت ؟

واستمر فى دعابته :

ـــ متى ؟

ـــ غدا .

ـــ لماذا غدا ؟

ـــ لأن إجازتى غدا وأستطيع أن أتفرغ لك .

وضربت له موعدا ، ولكنه لم يذهب ، فجاءت فى صبيحة اليوم التالى تقرع عليه بابه وتعاتبه لأنه تسبب فى ضياع يوم من أيام إجازتها .

كان هذا هو كل ما استروحه فى الشهر الطويل الذى مر عليه مذ غادر القاهرة إلى لحظته هذه ، إنه متعطش إلى الحب ، ظمآن إلى الحنان .

وألفى طيف كاريكارى يزوره ، ودبت فى أوصاله حياة ، وراحت نفسه تغريه بالهبوط إلى مكتب الاستقبال والتحدث إليها ؛ فإن من الحديث ما يحيى القلوب ، ويشحذ النفوس الصدئة ، ويفتح عوالم حبيبة من الآمال .

واتجه إلى المصعد ثم نزل ، وما أن خرج منه حتى ألفى نفسه أمامها وجها لوجه ، فابتسم وقدم إليها المفتاح ، وهم أن يلقى أول طرف من أطراف الحديث وإذا به يفاجأ بإقبال زملائه ووقفوا جميعا ينظرون إليها ويتحدثون بالعربية ، وقال لها حسنى :

ـــ لا تعجبى إذا أطالوا النظر إليك . إنهم لا يستطيعون أن يرفعوا عيونهم عنك لأنك تذكرينهم ببلادهم . ألم يقل لك أحد من قبل إنك مصرية ؟

فقالت وهى تبتسم :

— لقد حدث .

— أين ؟

— فى أسبانيا .

— ومن ذا الذى قال لك ؟

— صديق مصرى تعرفت به هناك .

وقال حسنى وهو يرنو إليها من طرف عينه :

— وما رأيك فيه ؟

فقالت وهى تضحك :

— كان مدهشا .

ولم تكن ضحكتها صافية .. كانت فيها ظلال من أسى ، وتشوب وجهها الخمرى مسحة من حزن ، ويلوح فى عينها شجن .

ومرت أيام وأعضاء البعثة يتوددون إليها ، وحسنى يختلس لحظات يقضيها فى الحديث معها ، وكانت تلك اللحظات أشهى لحظات يومه ، ودار بخلده مرة أن يدعوها للخروج معه ، ولكن خانته شجاعته .

وذات صباح هبط إلى مكتب الاستقبال وقد تأهب لمداعبة مس كاريكارى ولكنه لم يجدها ، فذهب إلى قاعة الطعام وتناول إفطاره وعاد يتلفت فلم يجدها ، واتجه إلى البار وراح يجوس خلال المقاعد ثم جلس يمضى بعض وقته مع نفسه . وعاد إلى مكتب الاستقبال ينقب عنها فلم يعثر لها على أثر ، واقترب من إحدى الفتاتين اللتين تعاونانها وقال :

— أين مس كاريكارى اليوم ؟

— مريضة فى حجرتها .

— وكيف أتصل بها ؟

— حجرتها رقم ٤٤٠ .

وعاد إلى غرفته وطلب غرفتها بالتليفون :

— آلو مس كاريكارى ، كيف حالك ؟

— متوعكة قليلا ، وشكرا لك .

— إننى أحسن كأن شيئا هاما ينقص حياتى لأننى لم أرك اليوم .

— شكرا ، ولكن من المتكلم ؟

— معجب .

— بالله قل من ؟

صمتت قليلا ثم قالت :

— أحد المصريين من أعضاء البعثة .

— برافو ، ولكن من على التحديد ؟

— ألا تعرفين ؟ خمِّنى .

— لا أعرف . قل أنت .

— قولى أنت : من منهم تفضلين ؟

— كلهم ظرفاء وقد أحببتهم جميعا ، كانوا معى كيسين .

— ولكن لابد أن أحدهم أقرب إلى قلبك من الآخرين .

— كلهم فى الحب سواء .

— وهل سأسعد برؤيتك فى المساء ؟

— لا أستطيع أن غادر الفراش اليوم .

— وهل أستطيع أن أزورك فى غرفتك ؟

— شكرا لك . لا أحب أن يرانى أحد فى لحظات ضعفى .

— وهل سأراك غدا ؟

— غدا سأعود إلى عملى .

— وأنا أدعوك للعشاء معى غدا احتفالا بشفائك . اتفقنا ؟

فقالت وهى تضحك :

— اتفقنا .

ومر اليوم ، وأقبل اليوم التالى ، وخف حسنى إلى مكتب الاستقبال ورأى مس كاريكارى تباشر عملها ، فأشرق وجهه بابتسامة ، ولاحت تلك الفرجة الجميلة بين سنيه الأماميتين ، التى كانت مس كاريكارى تحس الراحة تتدسس إلى جوفها وهى تديم النظر إليها .

قال فى انشراح :

— حمدا لله على سلامتك .

— شكرا لك .

ومال نحوها وقال :

— اتفقنا . أنت ضيفتى الليلة .

فقالت فى رضا :

— أكان أنت ؟

— نعم . هل خاب ظنك ؟

فهزت رأسها فى عتاب وقالت :

ـــ أبدا .

ورنت إليه رنوة عذبة عرفت طريقها إلى قلبه .

وراح حسنى يدبر لقاء المساء ، فقد دعاها وقبلت دعوته . وهو لا يدرى أين يذهب بها ، إنه يجوس خلال المدينة فى سيارة لا يكاد يتبين معالمها . وجاء عدنان ليصحب الوفد فى طوافه اليومى فأسرع حسنى إليه وقال :

ـــ دعوت مس كاريكارى للعشاء الليلة ، ولا أدرى أين نذهب . فهل لك أن تتكرم بإرشادى إلى مكان يليق بها ؟

فابتسم عدنان وقال :

ـــ لا يوجد مكان يصلح للعشاء إلا الفندق ، أو بيت من بيوت الأصدقاء .. إن بيتى تحت أمرك ، وسأخبر الطاهى أن يعد العشاء لاثنين .

ـــ شكرا .. شكرا ، إننى أريد مكانا عاما .

ـــ ليس لك الخيار ، فليس فى المدينة كلها مطعم واحد غير الفنادق ، وبيتى بيتك .

ـــ لو كنت أعرف ذلك ما دعوتها .

فقال عدنان فى حدة :

ـــ « ياعيب الشوم » ، إن عدت إلى مثل هذا القول فسأغضب .

ـــ إذن قل للطاهى أن يعد طعاما لثلاثة ، فما بينى وبينها ما أخفيه عنك .

وجاءت سيارة عدنان فى المساء وحملتهما إلى البيت ، ووقف عدنان يقدم لهما المشروبات بنفسه :

ــ كونياك ؟ وسكى ؟

فقالت مس كاريكارى :

ــ كونياك .

وقال حسنى وقد انفرجت شفتاه عن الفرجة التى بين سنيه الأماميتين :

ــ وسكى وقليل من الصودا .

ونظر حسنى إلى الفتاة نظرة طويلة ، إنها لا تتجاوز الثامنة عشرة ، إنها فى عمر الورود ، فما بال ذلك النقاب الخفيف من الحزن ينسدل على روحها .. ومتى غلفها ؟

ولم يسترسل فى التفكير طويلا وقال :

ــ والله كلما نظرت إليك أحسست أنك مصرية .

فقالت مس كاريكارى وهى تزفر نفسا فى صوت مسموع :

ــ ليتنى كنت مصرية .

ــ أتتمنين أن تكونى مصرية ؟

ــ أتمنى أن أكون أى شىء .

ــ ولكنك فعلا .. شىء .. شىء جميل .

ــ إننى لا شىء .. لا شىء على الإطلاق .

وأفرغت كأسها فى جوفها وقالت :

ـــ أمى وطنية وأبى إنجليزى ، تزوجا عن حب ، وكنت أنا ثمرة هذا الزواج . ومنذ أن تفتحت عيناى على الحياة وأنا أقاسى من رفيقاتى الوطنيات ، كن يعاملننى على أننى أجنبية ، دخيلة عليهن ، وقد حاولت مرات أن أفتح قلوبهن لى بالتودد إليهن ، والاندماج فيهن ، وممارسة كل ما يمارسن من أعمال ، ولكننى أخفقت وباءت كل محاولاتى بالاندحار .. كن يتظاهرن بمحبتى ، ولكنهن كن يعتقدن فى أعماقهن أننى لست أصيلة مثلهن .

واشتد عودى ، وسافرت إلى لندن مرة مع أبى ، وهناك كان الجميع يظهرون الود لى ، ولكن تصرفاتهم معى كانت تصرخ بأعلى صوت أننى أجنبية ، أننى لست منهم ، وراح بعض الشبان يتوددون إلى ، لا لأنهم أحسوا نحوى حبا أو تعاطفا أو انجذابا ، بل لأنهم عرفوا أننى مولدة ، وأن ليس لى أصول .. ودفعهم حب الاستطلاع فقط إلى محاولة تذوق نكهتى الخاصة .

إننى غريبة هنا .. غريبة هناك ، غريبة فى كل مكان . حتى إننى أكاد أنكر نفسى أحيانا ، فعواطفى مشتتة ، لا هى عواطف وطنية ، ولا هى عواطف بريطانية ، إننى حائرة ، تائهة فى هذا الوجود ، لا أعرف ماذا أعتنق ولأى شىء أتحمس . إننى لابد أن أومن بشىء ، ولكن هذا الشىء لا أستطيع أن أجده ، أبى مؤمن بإله ومؤمن بوطن ، وأمى مؤمنه بإله ومؤمنة بوطن ، وأنا لا أدرى أأومن بإله أبى أم بإله أمى ؟ . أأومن بوطن أبى أم بوطن أمى،وإذا ثار وطن أمى على وطن أبى مرة،فلمن أنضم ومن أخون؟

وحسنى يصغى إليها ، وعدنان بعيدا يعد المائدة :

— أحيانا تراودنى أفكار بشعة مدمرة أفزع منها ، ولكنى أخشى أن تكون نهاية مطافى ، توسوس نفسى أحيانا أن أكفر بإله أبى وإله أمى ، وأكفر بوطن أبى ووطن أمى ، وأومن بشيء واحد : بنفسى ، ولا شيء غير نفسى ، أعيش لها ، أمنحها كل ما فى هذا الوجود من لذات .

حياة أقرب إلى حياة السائمة ، ولكنها الحياة التى تلوح لى فى مستقبلى الذى تراكمت فى طريقه ظلمات فوقها ظلمات .

والتفتت إليه وقالت :

— آسفة ، قد أثقلت عليك ، وما دعوتنى إلا لتقضى ساعة مفعمة بالمتعة .

— إنها متعة لنفسى أن أظل أصغى إليك .

فقالت وهى تنظر إليه فى ود :

— لا يفضى الإنسان بمكنون صدره إلى إنسان إلا إذا أحس نحوه عاطفة ما ، لا أقول عاطفة حب ، بل عاطفة طيبة على أية حال .

وجاء عدنان ودعاهما إلى الطعام ، وظلوا يتسامرون ويسمعون موسيقى عربية وموسيقى وطنية وموسيقى غربية حتى انتصف الليل ، وقاما منصرفين والتفتت مس كاريكارى إلى حسنى وقالت :

— لقد قبلت دعوتك الليلة ، فهل تسمح لى أن أدعوك للعشاء معى غدا ؟

— كنت سأدعوك .

ـ باللهاقبل دعوتى ، فإن ذلك يجعلنى أحس أن لى كيانا ، أننى شيء يستطيع أن يدعو وأن تقبل دعوته .

ـ يشرفنى أن أقبل هذه الدعوة .

فقالت فى ابتهاج :

ـ شكرا .

وأمضيا سهرتهما معا ، وفى طريق العودة لف حسنى ذراعه حولها وضمها إليه ومال ليقبلها ، فقالت فى توسل :

ـ بالله لا تفعل معى ما يحاول أن يفعله الآخرون ، إن ذلك يجعلنى أحس أننى أوخذ أخذا وأننى لا أستطيع أن أعطى بمحض اختيارى ، هل تعدنى ألا تحاول اغتصاب شيء منى .

ـ أعدك .

ـ وأن تتركنى حرة فى اختيار ما أريده ، ومنح ما أريد منحه باختبارى ؟ . إننى أريد أن أحس أننى شيء يستطيع أن يعطى إذا أراد أن يعطى ، وأن يمنع إذا أراد يمنع ، وأن يأخذ إذا أزاد أن يأخذ . إن ذلك يمنحنى بعض الثقة فى نفسى ، ويجعل نفسى تحترم ذاتى ، فإن أبشع ما فى الوجود أن تحتقر النفس نفسها ، فهل تعاوننى ؟

ـ أعدك .

وراحت الأيام تمر وحسنى ومس كاريكارى لا يفترقان . وذات يوم جاء حسنى إليها فى الصباح وقال :

ـ لا بد أن أقابلك اليوم .

ـــ سأقابلك فى المساء .

ـــ ولكننا سنسافر هذه الليلة .

ـــ سأنتهى من عملى فى الثانية ، أستطيع أن أقابلك بعد ذلك .

وذهبا إلى بيت عدنان وراحا يتناولان الطعام معا ، وأستأذن عدنان فى الانصراف لمباشرة بعض أعماله .

وانبعثت الموسيقى من البيك آب ، وتقدمت مس كاريكارى إلى حسنى تطلب منه أن يراقصها ، وقاما يرقصان ، ومالت برأسها إليه وأسندته إلى صدره ، وراحت تضمه ، ثم جعلت تقبله فى وله ، ومنحته كل شىء .

ونظرت إليه والسعادة تترقرق فى عينيها وقالت :

ـــ كم أنا سعيدة اليوم لأننى منحت ما أريد منحه بمحض اختيارى ، ولم أغتصب غصبا ، أشكرك ، أشكرك لأنك منحتنى كل هذه السعادة ، وكل هذا الرضا المنتشر بين جوانحى .

وقامت متطلقة المحيا وقالت :

ـــ أشكرك ، لأنك عاونتنى على أن أجد نفسى .

ولم يدر فى خلدها فى تلك اللحظة أنها بدأت أول خطوة فى طريق الكفر بإله أبيها وإله أمها ، وبوطن أبيها ووطن أمها ، وأنها خطت السطر الأول فى كتاب الإيمان بشىء واحد ، بنفسها ولا شىء غير نفسها .

وذهب فى المساء لتوديعها ، مد إليها يديه الاثنتين فوضعت كفيها فى كفيه وقالت :

ـــ يحز فى نفسى رحيلك ، ولكننى لن أبكى ، فقد تعودت هنا أن ألقـى أنـاسا وأودع آخريــن ، ولكــنك لست كالقــادمين ولست كالمسافرين ، لقد كنت شيئا هاما فى حياتى ، التقى بى عند مفترق الطرق ، وقد عاوننى على أن أسير فى الطريق الذى اخترتـه بمحض إرادتى ، دون إغراء أو تأثير .

كل ما أستطيع أن أقوله لك أننى سأذكرك دواما ، وسأذكر بالغبطة الليالى السعيدة التى قضيناها معا .

فقال حسنى فى صوت متهدج :

ـــ وأنا لن أنساك ما حييت .

وسار وهو مفعم بالمشاعر والأحاسيس ، لا يلوى على شيء ، ولا يلتفت خلفه .

موعد في لشبونة

ودخل البهو الخارجي لفندق إمباسادور فى أكرا ثلاثة ، جعلوا يغدون ويروحون ، وبعض الشبان المصريين الجالسين حول مائدة فى جناح مكشوف من الفندق يرقبونهم ويبتسمون . كان الثلاثة لبنانيا وأمريكيا وثالثا لا تعرف جنسيته على التحديد ، وكان ظهورهم فى الفندق دليلا على هبوط طائرة فى المطار أو قرب سفر طائرة . فقد كان دأبهم أن ينتظروا إقبال المضيفات القادمات أو يودعوا مضيفات انتهت ليلة إقامتهن فى أكرا . وقد أطلق عليهم المصريون هناك : « هيئة المنتفعين بالمضيفات » .

دخل اللبنانى الجناح المكشوف ، وراح يجوس خلال المقاعد والمناضد وهو يتلفت وقد وضع يديه فى وسطه ، ولمح المصريين فحياهم ، ووقع بصره على محمود فقال له :

ـــ مسافر الليلة على بان أمريكان ؟

ـــ نعم .

ـــ إذن سأوصى عليك صديقتى .

— شكرا ، وأرجو ألا تفعل .

— لماذا ؟

— لأننى لا أحب أن يوصى علىّ أحد ، إننى أعرف كيف أشق طريقى .

وابتسم اللبنانى ابتسامة باهتة ، وإن كانت النظرة التى رمى بها محمود تصرخ فيه قائلة : أنت مغرور .

كان محمود أسمر الوجه ، غزير الشعر ، واسع العينين ، فى الخامسة والثلاثين ، يمتاز بجرأة نادرة ، وروح خفيفة جذابة ، وكان يحس تفتحا وانطلاقا إذا تحدث إلى فتاة أو أمرأة أو حتى إلى سيدة عجوز ، كان يجد لذة فى مداعبة الجنس الآخر ، وما كان حديثه معه إلا مداعبات .

وغادر المصريون الفندق إلى ملهى لشبونة القريب من المطار ، فقد قرروا أن يقضوا ليلتهم هناك ، حتى إذا حان سفر محمود ودعوه وعادوا إلى دورهم .

ومر الوقت فى سرد نوادر وضحك وشراب ، ومشاهدة الراقصين والراقصات ، والاستماع إلى موسيقى الجاز الصاخبة حينا والإعراض عنها حينا . وانتصف الليل وقام محمود يودع إخوانه ، ثم ذهب إلى المطار .

وفى الواحدة والنصف صباحا طارت الطائرة ، ووجد محمود نفسه فى مكان قريب من بابها ، فيه البوفيه وصفان من المقاعد يمين وشمال ، وستارة تفصل المكان عن مقدمة الطائرة ، وستارة أخرى تفصله عن

مؤخرها ، و لم يكن فى المكان إلا هو والمضيفات الثلاث .

وتمدد محمود فى مقعده ، وطافت بذهنه صورة رجال « هيئة المنتفعين بالمضيفات » فرقت على شفتيه بسمة ، وراح يتفرس فى المضيفات اللاتى كن يرتدين لبس الطيران السماوى وجوارب النايلون وأحذية خفيفة من جلد أسود ، فألفى إحداهن ذات شعر أحمر تركته مسترسلا . لم تكن فى مستهل حياتها ، إنما كانت تتأرجح حول الثلاثين ، وكانت الثانية شقراء ذات عينين زرقاوين ، طلت شفتيها بروج فاتح يميل إلى الزرقة ، أما الثالثة فكانت فى الثامنة عشرة ، مشدودة الصدر ، تتلفت كالأطفال ، وإن كانت تحاكى ممثلات السينما فى مشيتها .

ومشى الوسن إلى عينى محمود وما كاد ينعم بلذته حتى استيقظ على لمس يد ليده ، وفتح عينيه فوجد المضيفة ذات الشعر الأحمر تقول :

— قهوة أم شاى ، أم تريد أن تتناول شيئا ؟

وقال دون تفكير :

— شاى .

وطار النوم من عينيه على الرغم من الإرهاق الذى كان يحسه ، فهو إذا أغفى لحظات ثم استيقظ فقلما يعرف النوم طريقه إلى عينيه تلك الليلة .

وجاءت ووضعت فى حجره وسادة ، ثم وضعت فوقها صينية الشاى ، وجعل يشرب ، وأخذ الباب الفاصل بينه وبين مقدمة الطائرة يفتح ويغلق وتدخل منه المضيفات حاملات الصوانى أو يعدن ليستأنفن عملهن .

وبدأ السكون يخيم على الطائرة ، وانسحبت مضيفتان لتتمددا فى مقعدين خاليين فى المقدمة ، وبقيت المضيفة ذات الشعر الذهبى عند البوفيه تنجز بعض أعمالها .

ومرت بمحمود وفتحت الباب ثم أغلقته ، ثم عادت وفتحت الباب ثم أغلقته ، ووجدت محمود مستيقظا فقالت له :

ــ أظن من الأفضل أن تنتقل إلى المقعد الداخلى حتى لا يضايقك فتح الباب وإغلاقه .

وانتقل إلى المقعد الداخلى وقالت :

ــ انتظر حتى أزيل هذا المسند حتى لا يضايقك فى نومك .

وراحت تعالج المسند الفاصل بين المقعدين ، ومد يده وهو يتظاهر بمعاونتها وراح يمرر يده على يدها ، وغاص المسند فى الفراغ الكائن بين المقعدين ، وانتصبت المضيفة قائمة وهى تقول :

ــ سرير مريح .. نم .

فقال وهو يرنو إليها رنوة خاصة :

ــ أصبح سريرا لاثنين .

وابتسمت ثم انسحبت إلى مقعد مرتفع أمام البوفيه ، وأضاءت نورا خلفها وأخذت تقرأ فى كتاب .

وجعل محمود يتململ فى رقدته ، ثم قام وأخذ يتمطى ، ثم عاد لينام .. ولكن النوم لم يعرف طريقه إلى جفنيه .

ولمحته وقالت له :

— ألا تنام ؟ من المخجل ألا تنام ، فمعنى هذا أن خدمتنا ليست جيدة .

فقالت وقد التقت عيناه بعينيها :

— لم أعتد أن أنام وحدى .

فالتمعت عيناها ببريق خاطف ، ورمته بنظرة دلال تقول : « وبعدين » . وعادت إلى مكانها تستأنف قراءتها ، وعجزت عن أن تركز نفسها فيما تقرأ ، بل راحت ترمقه بطرف عينها ، ووجدته يتململ ويتلفت فذهبت إليه وقالت :

— تريد شيئا ؟

— نعم .

— ماذا ؟

— أنت .

ووقفت تنظر إليه و لم تختلج فيه خلجة اضطراب ، بل قال فى بساطة :

— ألست ضيفك الليلة ؟

— نعم .

— أليس لى حق الضيف على مضيفه ؟ لقد ضايقتنى وحدتى ، أريد أن أتسامر .

وأشار لها إلى المقعد الخالى إلى جواره وقال :

— تفضلى .

— لا أستطيع أن أترك مكانى .

— لا بأس ، آتى أنا إليك .

وذهبت إلى مكانها ، وذهب خلفها وجلس إلى جوارها وقال :

— من نيويورك ؟

— نعم . وأنت ؟

— مصرى .

فقالت فى فرح :

— أوه .

— هل سبق لك أن زرت مصر ؟

— أبدا .

— ولكن « أوه » هذه التى قلتها تدل على أن لك معرفة بها .

— لى صلة بأحد أبنائها .

— فى أكرا ؟

— لا ، فى لشبونة . إنه صديقى هناك .

فقال وهو يتظاهر بالضيق :

— لبنانى فى أكرا ومصرى فى لشبونة ، والمسافرون ليس لهم نصيب .

فقالت وهى تضحك :

— ألا يكفيهم خدمتى لهم فى الطريق ؟

— لو خيروا لاختاروا أن يخدموك ..

وصمت قليلا ثم قال :

ـــ لبنانى . مصرى . ألا يوجد فى جياتك عراقى أو سورى ؟

ـــ عرفت سعوديا مرة .

قليل من الرحلات فى الشرق وتصبحين جامعة عربية .

ـــ وكيف عرفت أن لى صديقا لبنانيا فى أكرا ؟

ـــ رأيت ذلك بعينى ، إننى صحفى .. أدس أنفى فى كل شىء .

ـــ وما الذى جاء بك إلى غانا ؟

ـــ أدرس الاتجاهات السياسية فى هذه المنطقة .

ـــ إذا أردت أن تحافظ على صلات الود بينك وبين أصدقائك فلا تناقشهم فى السياسة ولا تناقشهم فى الدين.

ـــ كيف لا أتناقش فى السياسة وهذه مهنتى ؟

فقالت وهى تبتسم :

ـــ لا تتناقش فيها معى على الأقل .

ـــ أوه . وهل عندى وقت أضيعه فى مهاترات .

وغمغم ببعض ألفاظ ، فمالت وهى تدنى أذنها منه ، وألفى خدها مكشوفا فطبع عليه قبلة .

وأشرق وجهها سرورا ، وقالت وهى تضحك :

ـــ لو أرسلت مصر إلى أمريكا ألف شاب مثلك لكسبت صداقتها .

ـــ ستكسب صداقة النساء فقط .

ـــ لا تنس أن خلف كل رجل امرأة .

ـــ تقصدين : خلف كل عشرة رجال امرأة .

ونظرت إليه نظرة دلال تقول : « وبعدين » ، وقال :

ــ هذه نسبة متواضعة .

فقالت فى جد :

ــ تنفقون أموالا طائلة فى دعاية لا أثر لها ، أما هؤلاء الشبان فسيقومون بدعاية ليس من السهل أن تنسى .

فقال ساخرا :

ــ أثرها باق ، يتغلغل فى الحشا .

وأراد أن ينهى هذا الحديث لينتقل إلى حديث آخر ، فقال :

ــ سأبلغ حكومتى رأيك هذا ، وأين تنزلين فى لشبونة ؟

ــ عند صديقى .

ــ وأنا ؟

ــ ستنزل فى فندق كوندستافيل .

ــ لا يهمنى أن أنزل فى كوندستافيل أو فى أى فندق آخر ، عندنا مثل يقول : سل عن الرفيق قبل الطريق ، وأنا أطبقه الآن . أسأل عن الرفيق قبل الفندق ، هل انتزعت الإنسانية من قلبك ؟

ــ لماذا ؟

ــ لتتركينى ليلتين مؤرقا ؟

ــ وما الذى يؤرقك ؟

ــ ألم أقل لك إننى لم أعتد النوم وحدى .

ــ لو لم يكن صديقى مصريا لقدمتك إليه . أنت تعرف .

فقال وهو يبتسم :

ــ أعرف .. سيثور ويسب ويلعن ثم يقوم ممسكا بتلابيبى .

ــ إنه غيور ، غيور جدا .

ثم قالت كالحالمة :

ــ ولكنه لذيذ .

فقال وهو يبتسم ابتسامة هزء واستخفاف :

ــ أوَ لا يعرف أصدقاءك فى المحطات الأخرى ؟

ــ كل ما يطلبه ألا أخونه فى لشبونة .

ــ وهل فعلت ؟

ــ نعم .

ــ هذا وفاء من نوع جديد .

وصمت ثم قال :

ــ الوفاء الدائم يميت الحب ، خيانة الحبيب مرة تجدد نيران حبه وتزيد لهيب الغرام اشتعالا .

ــ ماذا تريد أن تقول ؟

ــ أريد أن أؤدى لأخى المصرى هذه الخدمة الجليلة ، أن أكون أداة الخيانة التى تزيد نار حبك ضراما ، إننى أقدم نفسى وقودا فى مذبح حبكما .

فقالت فى صوت خافت كله إغراء :

ــ اسكت أرجوك .. بدأ رأسى يدور .

ـ متى ستصل الطائرة إلى لشبونة ؟

ـ فى العاشرة والنصف صباحا .

ـ نتقابل فى الرابعة ، لنجوس خلال لشبونة ، ونذهب إلى ملهى من الملاهى الليلية ، و..

ـ هل تريدنى أو تريد دليلا ؟

ـ أريدك .

ـ إذا كنت تريدنى فلماذا كل هذا الجرى ؟ هل معك أموال كثيرة ؟

ـ أبدا ، ولكننى أريد أن أدخل السرور على قلبك .

ـ إذا كنت سآتى فسأقابلك فى الثامنة مساء .

ـ أين ؟

ـ فى بار الديك . هل تعرفه ؟

ـ لا أعرفه ، وإن كنت أحس اللحظة إحساسه .

ـ إنه البار الملاصق للفندق الذى ستنزل فيه .

ـ هذا جميل .

ـ ألا تذهب لتستريح ؟

ـ الآن أستطيع أن أنام .

وقبلها قبلة خاطفة وقال :

ـ أشكر لك حسن ضيافتك .

وذهب إلى مقعده يغرى النوم بأن يطوف به ، وغفا قليلا وسرعان ما استيقظ ، فقد بدأت الحياة تدب فى الطائرة .

ولمح المضيفتين الأخريين تنظران إليه وفى عيونهما ابتسامات ، وفطن إلى أن ذات الشعر الأحمر أخبرتهما بالموعد المضروب بينه وبينها ، وجاءت الفتاة الصغيرة المشدودة الصدر التى تسير كممثلات السينما وقالت له :

ـــ أنت مصرى ؟ ما كنت أظنك هذا أبدا ، إنك لا تشبه المصريين ، من يراك يحسبك إيطاليا .

فقال لها وهو ينظر إلى وجهها الذى كان أشبه بوجه طفل :

ـــ وكيف تتصورين المصريين ؟

فقالت وهى تضحك :

ـــ أتصورهم ؟؟ إننى أعرفهم جيدا .

ـــ لم أكن أتصور أن بينك وبينهم صلة رحم .

وجاءت الثالثة تحمل طفلا صغيرا أسود كان أشبه بالدمية ، وقربته من محمود وقالت :

ـــ جميل ، أليس كذلك ؟

فقال دون أن تختلج فيه خلجة :

ـــ إننى على استعداد للمساهمة فى إنجاب طفل أجمل من هذا .

ونظرت إلى ذات الشعر الأحمر وضحكت ضحكة لها ذبذبة خاصة توحى بالغبطة والاستخفاف والرغبة فى الإفضاء بما سمعت ، وحملت الطفل الأسود وذهبت إلى ذات الشعر الأحمر تهمس لها بما قال ، فما كانت إحداهن تخفى عن الأخرى شيئا .

وراحت ذات الشعر الأحمر تخدمه فى عناية ، ووقفت تتحدث إليه قالت :

ـــ بقاؤك فى لشبونة على حساب الشركة ، ستتكفل بمصاريف إقامتك حتى تقلك الطائرة الثانية . لا تدفع أجر التاكسى فستدفعه الشركة ، ستنزل فى فندق كونديستافيل . هل من خدمة أخرى يا سيدى ؟

ـــ نعم .

ـــ ماذا ؟

ـــ هل فندق « كونديستافيل » قريب من بار الديك ؟

فقالت فى لهجة جادة ، فقد كان قائد الطائرة يمر بالقرب منهما :

ـــ نعم يا سيدى .

و لم تستطع أن تخفى البسمة العريضة التى التمعت فى عينيها .

ووصلت الطائرة إلى لشبونة ، ووقفت المضيفات الثلاث عند رأس السلم يودعن المسافرين ويتقبلن شكرهم ، ومر محمود وهو فى طريقه بذات الشعر الأحمر فقال :

ـــ شكرا لحسن الضيافة ، وأرجو أن نلتقى مرة أخرى .

ـــ شكرا .

وراح يدندن وهو هابط :

ـــ فى الساعة الثامنة قابلت حبيبتى فى بار الديك .

كانت النغمة عربية ولكن اللفظ إنجليزى ، وبلغت دندنته مسامع

ذات الشعر الأحمر فاتسعت ابتسامتها وهى ترد تحية رجل مسن لا يجلب إلى الشفاه الظمأى دائما مثل تلك الابتسامة التى توجتها .

وفى مثل لمح البصر وجد نفسه خارج المطار ، لا تعقيدات جمركية ولا مراقبة نقد ، لقد أحس محمود السيارة فى شوارع لشبونة ، كانت نظيفة أنيقة لها شكل خاص بها يأسر قلب القادم لأول مرة ، ووقعت عيناه على بعض ميادين وتماثيل ، وعند تمثال الجندى المجهول عرجت السيارة يمينا ، وسرعان ما عرجت يسارا ، وبعد مسيرة بضعة أمتار وقفت أمام الفندق .

وهبط من السيارة ووقف يتلفت ، ولم يطل تلفته فقد رأى عن يمينه بارا فى لون اللهب ، وقد برز فى واجهته شكل ديك من خشب سميك حدد بأنابيب النيون . فنظر إليه نظرة صداقة ، ثم اندفع إلى الفندق .

وارتمى فى الفراش قبل أن يرتدى بيجامته وراح فى سبات عميق ، ولم يستيقظ إلا فى الساعة السادسة .

وهبط يستكشف البار ، إنه مكان ضيق ابتلع البار نصفه ، وصفت فى النصف الآخر مناضد متلاصقة على جانبيها الكراسى . ولمح على مقعد مرتفع أمام البار فتاة حسناء ترتدى ثوبا أبيض وفى يدها كأس مترعة بالويسكى ، كانت آية فى الجمال حتى إنه فكر فى أن يدخل ويجلس إلى جوارها ويطلب كأسا ثم يأخذها بغتة ، ولكنه آثر أن ينتظر ذات الشعر الأحمر .

ووقف أمام البار ، وأقبلت فتيات يرتدين بنطلونات أمريكية

وقمصان مربعات وكن يتحدثن بأصوات عالية ، وراحت إحداهن تجرى وتقفز وقد أمسكت بعمود من الحديد يحمل لافتة كتب عليها « ممنوع الانتظار » وتدور حوله ثم تصيح صيحة انتصار عندما تستقر على الأرض ، وعادت تفعل بعمود ثان ما فعلته بالأول وزميلاتها يضحكن ، وقال بالعربية :

ـــ ما هذا الجنون ؟

وسمعته الفتيات وأقبلن يحادثنه ، ولم يفهم كلمة مما قلن ولم يفهمن مما يقال حرفا ، وإن كانت إشاراته إلى الفتاة ووضع أصبعه على عقله قد أرشدهن إلى مقصده ، فرحن ينادين الفتاة ويتحدثن إليها وهن يتلفتن إليه ، وإذا بالفتاة تقبل وهى تجرى حتى إذا ما وصلت إليه انحنت أمامه كما تنحنى ممثلة على المسرح ردا على تحية المعجبين بفنها ، ودار على عقبيه ودخل الفندق يتسلى بمشاهدة التلفزيون .

وراح الوقت يمر وهو ينتظر ، حتى إذا ما أشرفت الساعة على الثامنة ذهب إلى بار الديك ؛ كان الليل قد أقبل والأنوار تتألق ، وظهر الديك فى الضوء زاهيا ، عرفه الأحمر صاعدا هابطا ، وجلس على نضد بالقرب من زجاج الباب يرقب الطريق .

وفى الثامنة تماما كانت ذات الشعر الأحمر تجتاز باب البار ، كانت ترتدى ثوبا رياضيا يكشف ساقيها وجزءا من صدرها وذراعيها البضتين ، وقد بدت فيه أنثى ؛ فخفق قلبه لأول مرة وهو ينهض لاستقبالها .

قال :

ــ ماذا تشربين ؟

ــ كونياك .

وراحا يشربان وهما يتسامران ، قال لها :

ــ لا تنسى أن القاهرة المقر الدائم للجامعة العربية .

وقالت وقد رفعت حاجبيها دهشة :

ــ ماذا تقصد ؟

وقبل أن يجيب فطنت إلى مقصده فقالت وهى تضحك :

ــ سأقرر الليلة ما إذا كنت أتخذ القاهرة مقرا لى .

ــ ما رأيك فى أن نتناول العشاء معا ؟ استاكوزا .

ــ لا بد أن أعود مبكرة حتى لا يثور .

ــ أتخشين ثورته ؟

ــ أخشاها وأحبها ، جميل ، جميل أن يجد المرء من يغار عليه ، فالغيرة دليل الحب .

ونهضت ونهض وذهبا إلى الفندق .

وقال لها وهى ترتدى ثيابها :

ــ إنكن ظالمات .

ــ لماذا ؟

ــ لأنكن تسلبن حق الفتيات فى كل بلد تنزلن فيه ..

ــ لا أفهم ماذا تريد أن تقول .



وراحا يشربان وهما يتسامران ..

— أريد أن أقول إنك قد سلبت من فتاة غانية رجلا قد يكون من نصيبها ، وحرمت الليلة فتاة برتغالية من متعتها .

فقالت وهى تبتسم :

— كفيتها خيبة أمل .

وضربها على مؤخر ظهرها بكفه فضحكت ،ومالت عليه وقبلتهثم قالت :

— عندما أعود إلى مقر الشركة سألح فى طلب نقلى إلى الخطوط المارة بالقاهرة .

فقال وهو يبتسم :

— هذا تصحيح للأوضاع ؛ لأن مقر الجامعة العربية فى القاهرة .

وفتحت الباب وخرجت وهى تلوح يدها محيية تحية وداع ، وإذا بصورة الشاب اللبنانى الواضع يديه فى وسطه دائما تلوح لعينيه ، وإذا بضحكة ساخرة تنبعث مجلجلة فى الغرفة ، ود لو أنها وصلت إلى أكرا وصكت أذنيه .

عندما تخمد نار جهنم

أنا ماريا مانوبيلا ، فتاة من لشبونة ، فى الخامسة والعشرين من عمرى ، لست عذراء ولست زوجة ، أنجبت طفلة صغيرة جميلة من سنة كدت أطير بها فرحا ، وغمرتنى سعادة طاغية ، ولكن سرعان ما تقوضت سعادتى وأظلمت الدنيا فى عينى وضاقت أمامى على رحابتها عندما علمت أننى لا أستطيع أن أدعوها لأبيها .

إننى بائسة يائسه ، لم أكن فتاة مستهترة ، ولم أكن بغيا ، بل كنت متدينة شديدة التدين ، ولا أزال أومن بالله وبيومه الآخر ، وأذهب إلى الكنيسة أصلى وقلبى عامر بالمحبة والأمل والصفاء ، أحاسب نفسى على ما يبدر منى حتى لا آتى عملا يغضب الله فأطرد من رحمته ، لقد كنت فى كل أفعالى أتقى نار جهنم .

ولكن هل إيماننا وحدنا يكفى ليدفع عنا الزلل إذا كان الآخرون لا يؤمنون بما نؤمن به ؟ أبدا ، فما استطاع إيمانى العميق أن يثبت لكيد الذين كفروا والذين فى قلوبهم مرض ، الذين انطلقوا فى الأرض مفسدين بعد أن ماتت ضمائرهم يوم زاغت أبصارهم عن الله ، وانفلتت منهم شياطين شهواتهم ، واستبدت بهم رغباتهم يلبون نداءها دون رهبة ، فلم

يعد فى قلوبهم مكان لإله يخشون بأسه ، وقد خمدت فى نفوسهم نار جهنم.

كنت أعمل مدرسة ، وكانت المدرسة بعيدة عن دارى فكنت أضرب فى طرقات لشبونة الصاعدة الهابطة المبلطة بقطع صغيرة مربعة من البازلت الأسود ، وأنا سعيدة ، لا يضايقنى حر الصيف ، ولا يجعلنى برد الشتاء أتأفف ، فقد كانت فكرة أننى أكسب قوتى بشرف تغمر قلبى بالطمأنينة والرضا .

وفى ذات يوم ظهر فى أفق حياتى أنطونيو كوستا ، شاب فى الخامسة والثلاثين ، أنيق المظهر ، ممتلئ صحة ، يقود سيارة جميلة ، إنه مقاول ناجح ، عنده مال موفور .

كنت أجتاز أفينيدا دالبردادوا عند تمثال الماركيش بومبال فلمحته فى سيارته يتبعنى ، فلم أحفل به ، وسرت فى طريقى وإذا به يسبقنى بسيارته ، ثم تقف السيارة بعيدا عنى ويهبط منها ويقف على الطوار ينتظر وصولى .

خفق قلبى فى شدة بين ضلوعى ، وأحسست رهبة ، ورحت أجمع أشتات نفسى التى ذهبت شعاعا ، وأفكر كيف أتصرف إذا ما تقدم إلىّ فى جرأة ودعانى للركوب معه ، وقبل أن تهدأ نفسى كنت قد بلغته ، وكان قد مال نحوى وراح يقول :

ـــ أنا أنطونيو كوستا ، مقاول معروف ، لست من الشبان الطائشين الذين لا هم لهم إلا مطاردة الفتيات . ولكننى ما أن رأيتك حتى انجذبت إليك ، ولم أستطع مقاومة الرغبة الملحة فى صدرى التى راحت تحرضنى

على أن أقدم نفسى إليك ، وأعرض عليك صداقتى .

ووسعت من خطوى لأبتعد عنه وإن كانت ساقاى تكادان أن تخذلانى ، وراحت دقات قلبى تدوى فى أرجائى ، والدم الحار يتدفق إلى وجنتى فأحس أنهما تكادان أن تنصهرا ، وإن كانت رياح الشتاء تصفر .

ولحق بى وقال :

— أعرض صداقة بريئة فهدفى نبيل ، وما أهدف فى كل تصرفاتى إلا إلى تحقيق آمالى بشرف ، إننى أمد لك يدى ولك الخيار فى أن تقبليها أو ترفضيها .

ومد يده إلىّ وكدت أمد له يدى ، فقد هز حديثه عواطفى وحرك النواحى الطيبة فى نفسى ، لقد عرف طريق الوتر الحساس فى قلبى فضرب عليه ضربا خفيفا رقيقا تسرب حنونا إلى روحى ، ولكننى قلت فى تخاذل :

— ليس الآن . أرجوك .

وسرت فى طريقى ، وعاد إلى سيارته وانطلق بها حتى إذا مالحق بى حيانى ببسمة رقيقة من شفتيه ، وانحناءة خفيفة من رأسه .

وفتح حديث أنطونيو نوافذ كثيرة فى قلبى ، يا طالما جاهدت لتظل مغلقة حتى يأتى الرجل الذى سيتزوجنى ليفتحها بيديه . لقد عشت حتى الثالثة والعشرين أقاوم . إغراء الشبان الذين كانوا يحومون حولى . كانوا يطرون جمالى ويوسوسون لى أنه حرام أن أترك هذا الجمال ينطفئ

دون أن أسعد به ويسعد به الراغبون فى عب كأس اللذاذات ، ولكننى كنت أصم أذنى عن همسات الشباب وعن همزات نفسى ، فقد وطنت النفسَ على أن أظل طاهرة الذيل ، حتى يحملنى الرجل الذى سيشرفنى بحمل اسمه ، وكنت أجد فى مجاهدة المغريات المحيطة بى سعادة ، كان يزيد حلاوتها شعورى أننى سائرة فى طريق الله .

كنت ظمأى الحب ، وها هو ذا شاب وسيم ذو مركز وجاه جاء إلىّ يعرض حبه الشريف ، وغرضه النبيل ؛ فلماذا لم أضع يدى فى يد الصداقة التى مدت إلىّ ؟ إن مثل هذه الصداقة لا تنتهى إلا النهاية الطبيعية لكل صداقة بريئة بين شاب وفتاة ، الزواج . والزواج غاية وجودى ومنتهى آمالى فى الحياة ، إننى أخطأت ساعة أن رفضت يد الصداقة الممدودة لى ، خذلتنى نفسى . ولكن لماذا أصر على أننى رفضت ، إننى لم أرفض ، كل ما قلته له : ليس الآن أرجوك ، أى أننى مستعدة لقبول هذه الصداقة فى فرصة أخرى أتأهب لها ، فقد باغتنى مباغتة أذهلتنى وعطلت فكرى حتى كنت لا أدرى كيف أتصرف .

وقررت فى نفسى أن أقبل صداقته ، ولكن ما إن رأيته فى اليوم التالى يتبعنى بسيارته حتى فزعت واشتد وجيب قلبى ، وزاغت نظراتى ، ووسعت خطاى كأنما أفر من شبح يطاردنى ، وجعلت أجاهد لأعيد الطمأنينة إلى صدرى ، ولكن هيهات ، فقد كان الخوف يجتاحنى ويقتلع من أعماق كل طمأنينة وأمان .

وظل يتبعنى على البعد أياما ، وبدأت أحس أنه يزداد بعدا عنى كلما

مر يوم ، وأن أستارا بدأت تنسدل بينى وبينه حتى كاد يصبح ما بيننا ظلام قاتم ، وكاد اليأس يدب إلى قلبى ، وراحت نفسى توسوس لى أن أشير إليه أدعوه قبل أن تفلت الفرصة السانحة وأعض بنان الندم ، ولكننى لم أجد فى نفسى القوة على رفع يدى .

وانقضت عشرة أيام وهو يتبعنى كظلى دون أن ينبس بكلمة أو يحاول أن يعترض طريقى ، وفجأة سبقنى بسيارته ثم وقف وهبط إلى الطوار ينتظر وصولى ، وخفق قلبى فى صدرى كجناح حمامة ، وكاد زمام نفسى يفلت من يدى ، ولكننى جاهدت حتى سيطرت على الرعب الذى أطل برأسه وبدت بوادره فى عينى وفى الجفاف الذى سكن حلقى .

واقترب منى وقال :

— إننى أمد إليك يد الصداقة لآخر مرة ، ولك فى أن تقبليها أو ترفضيها ، فإن قبلتها فأنا سعيد ، وإن أصررت على الرفض فسأنصرف مطأطئ الرأس مهيض الجناح ، ولن تقع علىّ عيناك بعدها أبدا .

ومد يده إلىّ ، فوضعت يدى فى يده وأنا أحس كأنما يكاد يغمى على ، وظل ممسكا بيدى وراح يسحبنى فى رفق وأنا أتبعه كالمسحورة حتى بلغنا السيارة .

وركبت إلى جواره ، وانطلقت السيارة بنا وأنا أحس كأن موسيقى عذبة تسرى فى أعماق ، وأن دنان النشوة تنسكب فى روحى ، وأن ملائكة من السماء تطوف بى ، كانت لحظة فاصلة فى حياتى حفرت فى

أعمق أعماق ذاتى ، لن تمحوها يد السنين .

لم أكن أعرف فى لشبونة حتى الساعة غير الحى الذى نشأت فيه ، والطريق إلى المدرسة التى عينت فيها ، والحديقة التى كنت أمضى فيها أيام الآحاد ، وبعض سينمات فى الحى ، ومرقص كنت أروّح فيه عن نفسى أحيانا كلما أحسست الملل يتسرب إلى روحى ، ولكن بعد أن عرفت أنطونيو تفتحت عينى على حياة جديدة ، أصبح يأخذنى إلى مطاعم كان مجرد المرور عليها يملؤنى بهجة ، دخلت « ألفالاد » و « كاف دى أورو » و « بام بام » ، حتى مطعم « مكاو » الصينى تناولت فيه طعاما على الطريقة الصينية وأصبحت خبيرة فى ألوان الأطعمة فى مطاعم لشبونة .

ودخلت معه بارات كثيرة ، وزرت الملاهى الليلية كلها : « بيكودورادو » و « نينا » و « ريتس كلوب » و « بونتيانا » و « مكسيم » ، ورأيت لأول مرة فى حياتى « نونو سانتش كوستا » وهى تغنى على قيثارتها الحنون وتعبث بالقلوب فى أشهر الملاهى الليلية .

وذهبت معه إلى « الكورتيزيش نوما تورادا » وشاهدت مصارعة الثيران وأنا منفعلة أكاد أنكر نفسى ، فما كنت أصدق أننى أنعم بكل هذه السعادة التى غمرنى بها .

ومرت الأيام مترعة بالغبطة والسرور ولم أمنحه إلا شفتى ، كنا نتبادل القبل وكنت أصده إذا ما حاول أن يتجاوز غاية ما قررت أن أعطيه قبل أن تعلن خطبتنا .

وفى ذات يوم ذهبنا إلى النهر لنجتازه ونذهب إلى لشبونة الغربية ،

حيث الخضرة والمناظر الطبيعية الخلابة والهدوء الذى يبعث الراحة فى النفوس ، ودخلنا بالسيارة إلى المعدية التى انسابت الهوينى تعبر التيفولى ، ولف ذراعه حولى وأسندت رأسى على كتفه ، وظل صامتا لا ينبس بكلمة وإن كانت أصابعه تضغط على ذراعى ، ففطنت إلى أنه مقدم اليوم على اتخاذ قرار خطير ، قرار طالما انتظرته وداعب طيفه خيالى فى يقظتى وفى منامى ، فلم أقطع عليه حبل تفكيره ، وشردت أسعد بالأمانى الدافئة التى احتلت صدرى .

وبلغنا الضفة الغربية ، وانطلقت السيارة بنا ترقى فى الطريق ، حتى إذا ما بلغنا ربوة خضراء هرعنا إلى ظل شجرة وارفة وجلسنا تحتها .

وراح يمرر يده على شعرى فى حنان ثم قال :

ـــ ماريا ، لم أعد أطيق حياتنا التى نحياها ، إننى لا أستطيع أن أعيش بعيدا عنك ، إننى بدونك ضائع ، أصبحت كل شىء فى حياتى ، عالمى ومحور تفكيرى والنسمات التى تتردد بين جنبى ، إننى كلما أتركك أحيا على أمل لقائك ، لن أتركك بعد اليوم أبدا ، سنعيش معا فى بيت واحد .

بعد اليوم أبدا ، سنعيش معا فى بيت واحد .

وقلت له وأنا فى شبه غيبوبة من الانفعال والغبطة والخوف :

ـــ وكيف ؟

فقال فى حرارة :

ـــ أؤجر لك غدا شقة نعيش فيها معا .

فقلت فى حدة :

ـــ محال .

ـــ لماذا ؟

ـــ أنت تعلم أننى لن أقفل بابا علىّ وعلى رجل قبل أن يخطبنى .

قال فى انفعال :

ـــ سأعلن خطبتنا .

وقلت له وأنا أميل عليه وأنظر إليه بكل نفسى :

ـــ وحتى إذا أعلنت خطبتنا فلن أغلق علىّ وعليك بابا قبل أن نتعاهد أمام العذراء على أن تكون وفيا لى وأكون وفية لك ، وأن من يربط الله بينهما لا يفصل ما ربطه إنسان .

فقال وهو يضمنى إليه وعيناه تأتلقان ببريق خاطف :

ـــ أفعل .

وغبنا عن الوجود فى قبلة طويلة حارة .

وأثثنا شقة صغيرة أنيقة ، وأعلنت خطبتنا ، وذهبنا إليها ننسق بعض ما حملناه من أدوات ، وراح يقبلنى فى وله ، ويسير بى إلى غرفة النوم ، وكدت أتخاذل ، ولكننى جعلت أقاوم ذلك الخور الذى راح يتدسس فى روحى ، وأبخرة النشوة التى ملأت رأسى حتى كادت تعطل عقلى ، وقلت فى عزم كلفنى جهدا شديدا :

ـــ لا . لن يكون شيء من هذا قبل أن نتعاهد أمام العذراء .

وانطلقت السيارة بنا إلى « جوفادا إيريا » حيث كنيسة « سانت فاتيما » ، قطعنا مائتى كيلو تقريبا واجتزنا التلال وإذا بالكنيسة شامخة ،

حيث ظهرت العذراء من أربعين سنة لثلاثة من الرعاة الفقراء .

كان الذين من الله عليهم بالشفاء من أسقامهم يملئون الطريق ، كانوا يحجون إلى الكنيسة سيرا على الأقدام ، اعترافا منهم بما أسبغه الله عليهم من نعمائه ، وكان المرضى فى طريقهم إلى الكنيسة يلتمسون الشفاء وينذرون النذور .

واجترت باب الكنيسة وأنطونيو إلى جوارى يسند ظهرى بيده ، وأحسست خشوعا يملأ جوانحى وروحا نقية صافية ترفرف بين جنبى ، ودموعا طاهرة تندفع إلى عينى ، وما كنت أدرى أنها آخر دموع لم تتلوث بالدنس تنبثق من مقلتى .

وتقدمت إلى تمثال العذراء وكانت فى ثياب بيض ، وعلى رأسها عباءة بيضاء وتاج من ذهب ، وقد ثنت ذراعيها والتصق كفاها أمام صدرها ، وتحت أقدامها ورود بيضاء فى لون اللبن وحمراء فى لون الشفق ، وخررت ساجدة أردد صلاتى فى حرارة وإيمان عميق وركع أنطونيو إلى جوارى ، ولم تتحرك شفتاه وإن أسبل عينيه ، فحسبته يصلى بقلبه ، والقلب أقصر طريق إلى الله .

ورحت أعاهده أمام العذراء على الحب والوفاء ، وقد أنكرت صوته ، لم يكن متهدجا ولم يكن مفعما بالمشاعر الطيبة ، فالكلمات التى نطق بها لسانى كانت حارة مشحونة بالإيمان ، أما الكلام الذى كان يردده فلم يكن نابعا من قلب يستشعر خشية الله . أحسست كل هذا وأنكرته ولكننى عللت النفس بأننى امرأة لا تستطيع كبت عواطفها ،

أما هو فرجل قادر على كبح مشاعره وما يختلج فى نفسه .

وعدنا إلى العش الذى أثثناه وعشنا فيه زوجين نعب كأس الهناء ؛ وفى ذات ليلة قال لى وهو يضمنى إليه :

— ماريا ، إننى لا أحب أن تعمل زوجتى .

— لماذا ؟

— لأن المدرسة تسلبك منى ، إننا لسنا فى حاجة إلى مال .

ولم أكن أعصى له رغبة ، فاستقلت من وظيفتى وتفرغت له .

ومرت الشهور مرور الطيف ، وجئت إليه وقلت :

— أنطونيو ، هات أذنك .

وألقمنى أذنه ورحت أهمس :

— أنطونيو ! تحرك ابنك فى أحشائى .

وترقبت أن تتهلل أساريره ، وأن يضمنى إليه ويمطرنى قبلات ، ولكنه وجم وأطرق ساهما ولاح فى وجهه الهم ، وراحت الرهبة تنتشر فى جوفى فقلت له :

— لكأن النبأ لم يسرك .

فقال وهو مطرق :

— هذا حق .

فقلت وأنا أبتعد وأرمقه بعيون مفتوحة :

— لماذا ؟

— لأننى لا أريد أن أنجب أبناء قبل أن يتم زواجنا ؟

— لقد أعلنا خطبتنا وهذا يكفى .

— ولكننى لا أريد أبناء قبل أن تتم جميع إجراءات الزواج .

وراح يزين لى الإجهاض ، ورضيت على مضض إكراما له . كانت أمومتى قد تحركت ، وكانت عواطفى الطيبة كلها قد اتجهت إلى ذلك الذى فى أحشائى ، والذى أحببته قبل أن أراه ، ولكننى ضحيت به فى سبيل رغبة زائفة .

وراحت الأيام تمر وهو يحوطنى بعطفه ورعايته ونسيت ما كان من أمر ذلك الذى قتلته فى بطنى قبل أن يكتمل ، حتى وخزات ضميرى خبت وطاف بى شعور طيب راح يوحى إلىّ بأن الله قد غفر لى .

وحملت مرة ثانية ، ولم أفض بسرى فقد عزمت على أن أضع مولودى كما يضع النساء الأخريات أولادهن ، وبعد شهور انكشف أمرى ، وجاء إلى يغرينى بمعاودة الإجهاض ولكننى أبيت ، واشتد فى الإلحاح وأصررت على الرفض ، وبدأ يتغير ، راح يشرب كثيرا ويتعمد أن يسىء إلىّ .

ووضعت أنثى جاءت متفتحة كورد الربيع ، وتفتحت لها نفسى وتعلقت بها كل جوارحى ، وانتظرت أن يميل عليها يقبلها كما يفعل الآباء ، ولكنه كان لا ينظر إليها ، وإذا وقعت عيناه وقفت عفوا ازور عنها.

وحز ذلك فى نفسى وحرك شكوكى ، وقد أصبحت تلك الشكوك يقينا عندما طلبت منه أن يسجلها لتحصل على شهادة ميلاد ، قلت :

— نسميها ماريا تريزا أنطونيو .

فقال وهو يمنحني ظهره :

ـــ لا أستطيع أن أمنحها اسمى .

فقلت فى فزع :

ـــ تمنحها ؟ إنها ابنتك ، ومن حقها أن تحمل اسمك .

ـــ محال .

ـــ لماذا ؟ .

ـــ لأننى متزوج ولى أولاد .

وأحسست كأن أنقاض الدنيا سقطت على رأسى ، وراحت الأرض تميد بى ، وجعلت أصرخ وأبكى وأسب وأمزق شعرى وأخمش وجهى ، ولكن كل ذلك كان هباء ، فقد جاءت ابنتى إلى الوجود دون أن تستطيع حمل اسم من أوجدها .

وخمدت نار ثورتى ، وتفتحت عيناى على الدنيا البغيضة التى تنتظرنى . ماذا أفعل و لم أعد وحدى ؟ فقدت وظيفتى وما كان لى مورد رزق آخر . وانتابنى يأس شديد ، و لم يكن أمامى إلا أن أقبل أن تستمر علاقته بى على أن يدفع نفقات البيت ونفقات ابنته .

وراحت الأيام تمر والعلاقة التى بيننا تفتر ، وبدأ يقتر فى الصرف ، يدفع مرة ويماطل مرات . وتراكمت الديون علىّ ، وجعلت أتوسل إليه أن يرحمنى ، وأستحلفه ، بذكرى اللحظات السعيدة التى عشناها معا أن يصون ما بقى لى من شرف ، فوعدنى بأنه سيسدد كل ديونى ، وسيرتب لى ولابنته معاشا ، ولكنه ذهب فجأة كما جاء فجأة وتركنى أنا وابنتى

نصارع القدر .

بعت كل ما عندى من أثاث ، و لم أعد أملك إلا السرير الذى أنام عليه أنا وهى ، وقد كلت قدماى من البحث من عمل . إننى أريد أن أعيش ما بقى من عمرى حياة شريفة ، أكفر عن جريمة رجل خبت فى نفسه نار جهنم ، ترى هل أوفق إلى عمل أصون به نفسى ، أو سترغمنى ظروفى أن أتسكع فى الطرقات لآكل أنا وابنتى من أخس مورد تأكل منه امرأة ؟؟

ليلة عاصفة

وقفوا أمام موظف الجمرك وقد فتحوا حقائبهم ، وراح الرجل ينظر داخل الحقائب ويسأل عن الأشياء التى يستحسن تحصيل عوائد عليها ، وكان يصدق كل ما يقولون ، كانوا خليطا من أجناس شتى يتأهبون لمغادرة ألمانيا والانطلاق إلى الدانمرك .

وكان بينهم فريق من الشبان والشابات الدانمركيين فى رحلة خاطفة فى أوروبا فى طريق عودتهم إلى وطنهم ، وكان السهر والتعب يلوح فى عيونهم حتى إن بعضهم لم يستطيعوا إلا أن يسبلوا جفونهم ويلقوا برءوسهم على صدورهم ، ومع ذلك كان أغلبهم يمرحون ويضحكون ويغدون ويروحون فى نشاط ، فقد كانت الحياة تجرى فى عروقهم .

وبدأ موظف الجمارك يجمع جوازات السفر ، وقدم له شاب أسمر جواز سفره ، وكان أخضر اللون مكتوبا عليه بحروف عربية ، فراح الرجل يقلبه فى يده ، ثم فتحه وقرأ بصوت عال :

ـــ أنور صالح ، مصرى ، تاريخ الميلاد ٢٥ أبريل سنة ١٩٣٣ . أليس كذلك ؟

والتفت إلى أنور فألفاه يهز له رأسه موافقا ، وقال الرجل وهو يقرب



يا مصطفى يا مصطفى ، أنا بهبك يا مصطفى

جواز السفر من عينى أنور :

ـ أين رقم الجواز من فضلك ؟

وأشار أنور بأصبعه إلى الرقم ، وكانت فتاة من الدانمركيين تتابع الحديث ؛ كان شكلها أقرب للأسكيمو وكانت فى عينيها المجهدتين من السفر خفة ، ودنت من أنور وقالت :

ـ مصرى ؟

ـ نعم .

وإذا بالفتاة ترفع يديها فى الهواء وتحاول أن ترقص رقصا شرقيا وهى تغنى :

ـ يا مصطفى يا مصطفى ، أنا بهبك يا مصطفى ..

وأسرع أصدقاؤها يصفقون لها ، وشاركها بعضهم فى تقليد الرقص الشرقى بطريقة مضحكة جعلت مصطفى يبتسم ضاحكا ، والتفوا حوله وهم يرقصون ويضحكون ، ووقفت فتاة ترتدى ثوبا من قطعتين فى لون الشفق ، وقد تدلت آلة تصوير فوق صدرها ، ترقب ما يجرى وفى عينيها إشراقة وعلى شفتيها بسمة حلوة .

وأقبلت فتاة من الشلة على أنور وقدمت إليه مشطها ، واستدارت له ومالت نحوه برأسها ، فلم يجد أنور بدا من أن يصفف لها شعرها وأن يمرر يده على رأسها ، والتصق ظهرها بصدره فاستشعر ضيقا ، كانت رائحتها تشى بها ، لعلها خلعت ثيابها فى الليلة الماضية أو الليالى السابقة ، ولكنها لم تذهب إلى الحمام من مدة .

ونادى موظف الجمارك على المسافرين من الدانمركيين ، وسمع أنور اسمه فتقدم ، ووقف إلى جوار الفتاة التى ترتدى ثوبا من قطعتين فى لون الشفق وخيل إليه أنها تبتسم له فانبسطت أساريره دون أن تتفرج شفتاه ، وانتهى موظف الجمرك من قراءة ما معه من أسماء ، وإذا بموظف آخر يطلب من المسافرين أن يتبعوه .

وسار أنور إلى جوار الفتاة ، ونفذ الجميع من باب ضيق فإذا هم على رصيف الميناء ، وإذا بقطار يصل إلى نهاية قضبان الرصيف وينساب على القضبان الممتدة فى جوف السفينة ليستقر فيها ، وتمهل أنور فى سيره ينظر ؛ كانت أول مرة يرى فيها قطارا يحمل فى سفينة ليجتاز البحر ، ومن ثم يعاود انطلاقه على الأرض .

وصعد فى سلم السفينة والفتاة إلى جواره ، واحتك كتفه بكتفها أكثر من مرة ، والتقت عيناه بعينيها مرات ، ولم يفكر فى محادثتها ؛ كان يعتقد فى قرارة نفسه أنه سيمضى الرحلة مع الشبان الدانمركيين يشاركهم مرحهم وطيش الشباب .

وانساب بين قاعات الجلوس ودكاكين بيع الهدايا على ظهر السفينة ، ووجد بعض الأرفف فترك حقيبته الوحيدة الصغيرة التى كان يحملها ، ثم راح يجوس خلال المكان يتلفت ، وإذا به يسمع صوتا نسويا يقول بالإنجليزية :

ـــ أين وضعت حقيبتك يا مصطفى ؟

فالتفت فإذا بها الفتاة ذات الثوب الذى كان فى لون الشفق ، فقال

لها :

ـــ تعالى .

وسار معها حتى بلغا مكان حفظ الحقائب فوضعت حقيبتها بالقرب من حقيبته ، وإذا به يمد يده ويتناول الحقيبة ويضعها فوق حقيبته خشية أن تخدش ، ثم يقول لها :

ـــ إلى أين ؟

فقالت له فى بساطة :

ـــ إلى أين تحب أن تذهب ؟

ـــ أنا ذاهب إلى سطح المركب ، لأنى أحب أن أرقب الشاطئ وهو يبتعد عنا .

فقالت وهى تبتسم :

ـــ هل الشاطئ هو الذى يبتعد أو السفينة ؟

ـــ المسألة نسبية ، والعبرة بالأشواق التى على الشاطئ والتى على السفينة .

ونظرت إليه مفتوحة العينين كأنما تتساءل : أيفهم ما يقول ؟ وقالت وقد توجت شفتيها بسمة :

ـــ وأنا أحب أن أرى المركب وهو يبتعد عن الشاطئ .

ومشيا فى ممرات السفينة ، وخرجا من طاقة لا تسمح إلا بمرور شخص واحد إلى السطح المكشوف ، واتجها إلى الحاجز ووقفا ينظران . كان القطار قد استقر فى جوف السفينة ، وكانت سيارات بعض الركاب

قد صفت بالقرب منه ، وكانت السفينة على أهبة الرحيل ؛ أطلقت صفارة طويلة ، وارتفعت أصوات حركة المحرك الرتيبة ، ثم بـدأت الرحلة .

قالت الفتاة وهى تنظر أمامها :

ــ الشاطئ يبتعد عنا ، كنت على حق يا مصطفى لما قلت إن الشاطئ هو الذى يبتعد . إننا هنا ثابتون ، وسنكون هنا دواما ، أما الشاطئ فهو الذى يبتعد ، هو الذى سيختفى .

فقال وهو يرنو إليها رنوة فيها خبث :

ــ إننى أحس يا كاترين كلما بعدت عن شاطئ أو هبطت فى مطار ، أننى أولد من جديد .

فرمقته بدهش وقالت :

ــ ومن قال لك إننى أدعى كاترين ، اسمى إستر .

ــ ومن قال لك إننى أدعى مصطفى ، إن اسمى أنور .

وضحكا . وقال :

ــ من أين ؟

ــ من نيويورك ، وأعرف أنك من مصر .

ورفعت يديها فوق رأسها دون أن تحاول تقليد الـراقصات الشرقيات .

وراحت تغنى :

ــ يا مصطفى يا مصطفى .

ورفع رأسه فرأى أسراب الطيور المائية تتبع السفينة ، كانت أشبه بمظلة من الطائرات تحمى سفينة حربية ، ومد بصره إلى البحر فألفى الأمواج فى حركة دائبة كجياد شهب يجرى بعضها فى إثر بعض . وجعل يملأ عينيه بجمال الطبيعة ، ورئتيه بالهواء الذى أنعشه ، ثم عاد ينظر إليها فوجدها تتفرس فيه وهى شاردة ، فقال لها :

ـــ ما الذى يشغل رأسك ؟

ـــ سؤال قد يكون تافها .

ـــ وما هو ؟

ـــ أهذه أول مرة ترتدى فيها مثل هذه الثياب ؟

وأشارت برأسها إلى ثيابه فقال فى هدوء :

ـــ ما الذى جعل هذا السؤال يدور فى خاطرك ؟

ـــ كنت أعرف أن العرب يرتدون العباءة والعقال .

فقال لها فى سخرية خفيفة :

ـــ وأن لكل رجل حريما قد يضم أربعين غانية ، كلهن رهن إشارته ، وطوع بنانه ، وما عليه إلا أن يصفق حتى يهرعن إليه يرقصن ، ويتمايلن فى دلال ، ويبذلن كل ما فيهن من إغراء وسحر لإدخال السرور على قلبه .

فقالت وقد اتسعت عيناها :

ـــ أوَليس ذلك هو الواقع ؟

ـــ هذا واقع ألف ليلة وليلة ، أما واقعنا فشىء آخر ، إننا فى مصر

نرتدى هذه الثياب ، ولا أقول ذلك فخرا بل لأقرر حقيقة ، ولا أحسب أن طراز الثياب التى نرتديها يمد الإنسان بقيمة خاصة .

ـــ الثياب لها دلالتها ولا شك ؛ فالمتحضرون لهم ثيابهم ، والمتخلفون لهم ثيابهم أو يضربون فى الأرض عرايا .

ـــ هذه وجهة نظر عجلى ، أكانت عقلية أينشتين تتغير كثيرا لو أنه استبدل الروب دى شامبر بالعباءة ؟ حضارة الشعوب فى عقول أبنائها ، فى الميراث الإنسانى الذى ورثته عن أسلافها ، فى عراقة تاريخها ، لا فى أزياء الفارغين من ذريتها .

فقالت له وهى تبتسم :

ـــ احتفظ برأيك هذا لنفسك ولا تعلنه .

ـــ لماذا ؟

ـــ حتى لا يصل إلى بيوت الأزياء فيقتلوك .

فتبسم ضاحكا وقال :

ـــ والحريم ، ألا أتحدث عنهن ؟

ـــ حديث الحريم ممتع تتفتح له الآذان والقلوب .

ـــ وتهيم فيه الأخيلة ، وقد قيل ما اجتمع ملكان إلا كان الحديث بينهما عن الحريم .

فهزت رأسها فى إعجاب وظهر فى وجهها الاهتمام ، فقال لها وهو يتظاهر بالشرود :

ـــ فى قصرى أربع زوجات . وعشرون جارية لم تتجاوز واحدة

منهن الثانية والعشرين من عمرها ، شعورهن فى لون الليل الذى اختفت نجومه ، وعيونهن كعيون المها تنفث السحر وتعبث بالقلوب ، وأجسامهن كالبلور لما يشع النور ، وفى قصرى بركة ملئت بماء الورد ، فإذا ما جن الليل خلعت الجوارى ثيابهن ..

وتوقف عن سرد باقى قصته ، فقالت فى لهفة :

ـــ هيه ؟

فقال فى سخرية :

ـــ أرأيت أن الثياب لا قيمة لها حتى فى القصور ؟

فقالت تستحثه ليقص باقى قصته :

ـــ ماذا يحدث بعد أن تخلع الجوارى ثيابهن ؟ قل .

ـــ يقفزن فى البركة وهى يضحكن ضحكات تدغدغ الحواس ، فتفور دمائى فى عروقى فأخلع ثيابى وأقفز خلفهن .

وتنهدت إستر وقالت كأنما تحلم :

ـــ رائع .. عاطفى ..

ـــ هذه هى صورة الشرق فى أذهانكم .

ـــ أوَ ليست هى الحقيقة ؟

ـــ الحقيقة أن أغلبنا لا يتزوج أكثر من واحدة .

ـــ كيف تريد أن أصدق هذا ؟ هذا لا يمكن تصوره .

ـــ أنا معك ، من الصعب أن تتصورى هذا بعد الذى سمعته أو قرأته أو شاهدته عنا فى السينما ، ولكننى أؤكد لك أننى متزوج من فتاة كانت

زميلتى فى الجامعه ، وهى مثلك تهتم بزينتها ، وتتابع أحدث مودات تصفيفات الشعر ، وآخر ما ابتكرته بيوت الأزياء .

فقالت فى حماسة :

ـــ إنها تستجيب للطبيعة لترضيك .

ـــ لو كنا نستجيب للطبيعة لوجب علينا نحن الرجال أن نتزين لكن .

فقالت وهى تنظر إليه فى دهش :

ـــ لا أفهمك ، ولا أستطيع أن أدرك ماذا تقصد ..

ـــ الطاووس الذكر له ريش رائع خلاب ينشره ليغرى به الأنثى بينما الأنثى عطل من كل زينة ، والديك له عرف أحمر أروع من تاج على رأس ملك بينما الدجاجة لا جمال فيها ، وكذلك الحال فى ذكور كل الحيوانات ، فإذا كنا نستجيب حقا للطبيعة لكان علينا نحن الرجال أن نبرز فتنتنا لنذير رءوس النساء .

ـــ ولماذا لا تفعلون ؟

ـــ لأن فتنتنا فى عقولنا .

وشردت تنظر إلى الأفق البعيد ولزمت الصمت ، وراح يرنو إليها بعين فاحصة ، كانت تقاطيعها متناسقة ، وشعرها أصفر ، وعيناها زرقاوين ، وبروز صدرها متواضعا ، وكانت نحيلة فى رقة ، ولكن شخصيتها كانت أجمل ما فيها .

وقال لها وهو يدنو منها :

ـــ فيم تفكرين ؟

ـــ فى كل ما قلته لى . قضيت فى لحظات على سحر الشرق الذى كان يملأ نفسى ، فلطالما حلمت بأن أذهب إلى الشرق وأن أخــرج إلى الصحراء على ظهر حصان .

ـــ وأن يخطفك ابن الشيخ ويفر بك إلى خيمته .

فهزت رأسها فى أسى ؛ فقال لها :

ـــ صورة جميلة تستهوى كل الفتيات ، آسف إن كنت قد أفسدت عليك أحلامك .

ـــ أنفع ما فى هذه الدنيا الأحلام .

ـــ حقا الأحلام رائعة ، ولكن ينبغى أن نتعلم كيف نفرح بالحقائق التى نكتشفها ، حتى ولو كانت مرة .

وتحسست الكاميرا التى على صدرها ، وقالت وهى تستدير لتقف فى مواجهته على بعد خطوات منه :

ـــ سألتقط لك صورة .

وانهمكت فى آلة التصوير ، وجعلت تتحرك ، تتأخر خطوة وتخطو إلى اليمين خطوة وترفع الكاميرا على صدرها ، وارتفع صوتها :

ـــ واحد .. اثنان .. ثلاثة ..

واتجهت إليه وقالت :

ـــ أتسمح أن تلتقط لى صورة ؟

ـــ بكل سرور .

وتناول الكاميرا منها وقلبها فى يديه ، فقالت له :

ـــ أتجيد التصوير ؟

ـــ لن أدعى أننى حصلت على جميع جوائز التصوير فى بلادى ، ثم لا تظهر بعد ذلك فى الصورة إلا السماء أو الماء أو بعض الغادين والرائحين هناك أما أنت فلا يبدو لك فيها أثر .

والتقط عدة صور ، وقام أحد المسافرين بالتقاط صورة لهما معا ، ثم دخلا إلى قاعة الطعام وطلبا قدحين من الشاى وراحا يستأنفان الحديث ، قالت له :

ـــ ما هو برنامجك فى كوبنهاجن ؟

ـــ سأزور حدائق التيفولى فى المساء ، وفى صباح غد سأطوف فى أنحاء كوبنهاجن فى سيارة من سيارات السياحة ، وسأزور القلعة التى وقعت فيها مأساة هملت ، والبيت الذى ولد فيه أندرسون .

فقالت وقد شردت ببصرها :

ـــ أندرسون ؟

ـــ الكاتب الدانمركى الذى كتب أروع قصص العفاريت والأساطير .

فنظرت إليه وقالت :

ـــ الظاهر أنك من هواة الأدب .

ـــ أنا قارئ نهم . قد أقرأ فى ليلة أكثر من كتاب .

ـــ أقرأت لأحد من الكتاب الأمريكان ؟

ـــ لأغلبهم ، وآخر ما قرأت من الأدب الأمريكى مسرحية لتنيسى

وليمز .

— ما رأيك فيه ؟

— أقول رأيى صراحة ولا تغضبين ؟

فهزت رأسها أن نعم ، ولاح فى وجهها الاهتمام وتعلقت عيناها بشفتيه ، وقال :

— من يقرأ تنسى وليمز يعتقد أن الأمريكان كلهم منحرفون ، مجانين ، يعانون رجالا ونساء من الشذوذ الجنسى والانهيار الخلقى ، ضائعون لا تحركهم إلا غرائزهم ، ليست فى حياتهم إشراقة أمل ولا إيمان عميق .

— أأفهم من ذلك أنك لا تقدره ؟

— بالعكس إننى أقدره وأعرف أنه عبقرى فى فنه ، وهذه العبقرية هى التى جنت على أمريكا ، جعلت فنه ينتشر فى الدنيا ، ويسرت له عرض صورة هابطة للأمريكان على أنظار العالم .

وغابت الشمس فى الأفق ، ووصلت السفينة إلى البر ، فتح جانبها ليخرج منها القطار ليحمل الناس إلى كوبنهاجن ، ووقف المسافرون يتأهبون للهبوط إلى أول أرض دانمركية قابلتهم .

ونزل أنور وإستر مع النازلين وانطلقا إلى مقصورة فى القطار وكانت أمنية كل منهما ألا يشاركهما أحد فيها ، وإذا بالباب يفتح ويتدفق إلى الديوان بعض عجائز الأمريكان .

وانساب القطار فى الليل فى المروج الخضراء ، وراح النسوة يثرثرن ،

وأنور وإستر يتبادلان النظرات وبعض أحاديث خاطفة ، وفتحت إستر حقيبتها الصغيرة لتخرج منديلا نظيفا ، وظهرت زجاجة النبيذ التى اشترتها من الباخرة ، فقال لها أنور :

ـــ الزجاجة تحفة فنية .

ـــ رائعة ، ولكننى أفكر فى تركها .

ـــ لماذا ؟

ـــ رجال الجمارك عندنا فى منتهى القسوة ، لو عثروا عليها فى حقائبى ، وسيعثرون عليها حتما فهم يفتشون أمتعة العائدين من أوروبا قطعة قطعة ، فسيوقعون علىّ غرامة كبيرة .

وقدمتها إليه وقالت :

ـــ هل لك فى أن تنقذنى منها ؟

فقال وهو يرفضها بيده :

ـــ شكرا ، لا حاجة لى فيها .

وبلغ القطار محطة كوبنهاجن وكانت تموج بالناس موجا ، رجال ونساء من كل جنس يدخلون من أبوابها المتفرقة ، وجماعات من الناس يهبطون من قطارات كثيرة يتجهون إلى الأبواب ليخرجوا منها ، ومحال كثيرة منتشرة فى بهو المحطة تعرض كل السلع ، وحركة دائبة نشيطة . كان المكان أشبه بخلية نحل لا تهدأ .

وسار أنور وإستر مع جموع الناس المتدفقين إلى العاصمة ، واتجه الجميع إلى أكشاك السياحة المنتشرة فى مواجهة المحطة ليحجزوا أماكن

مبيتهم ، ووقف أنور فى الصف ، ووقفت إستر فى نفس الصف خلفه يفصل بينه وبينها ثلاثة رجال .

وراح أنور يتقدم فى بطء وكان يتلفت نافد الصبر ، والتفت خلفه أكثر من مرة وكانت عيناه فى كل مرة تلتقيان بعينى إستر ، وخطر له أن يسألها هل يحجز لها معه فى نفس المكان الذى سينزل فيه ، ولكنه طرد هذه الفكرة وفضل أن يدعها تختار على هواها .

وبلغ فى زحفه موظف السياحة ، وكانت أمامه ورقة كبيرة أشبه بخريطة مدون بها الأماكن الخالية وعناوينها ، وقال أنور :

ـــ أريد غرفة بسرير واحد قريبة من هنا .

فأعاد الرجل النظر فى الورقة ثم قال :

ـــ آسف ، لا توجد إلا غرفة بسريرين ، وتبعد عن هنا بالسيارة بمقدار عشر دقائق .

و لم يجد أنور مفرا من قبولها فقال :

ـــ لا بأس ، إنها ليلة واحدة .

وكتب له موظف السياحة العنوان فى ورقة ، وأجرتها فى الليلة .

وشكر أنور الموظف وابتعد منصرفا ، وهم بأن ينطلق ولكنه آثر أن يتريث حتى تنتهى إستر من حجز غرفتها ، ثم يودعها ويذهب إلى حال سبيله .

وأقبلت إستر نحوه وفى نظراتها قلق ، وقالت :

ـــ لم أجد مكانا أبيت فيه ، جميع الغرف حجزت .

— وماذا ستفعلين الآن ؟

— سأبحث عن مكان أبيت فيه .

فشرد بصره ولاح فى وجهه التفكير ، وهم بأن يقول شيئا ولكنه عاد وأمسك لسانه ، وفطنت إلى تردده فقالت له :

— ماذا تريد أن تقول ؟

— لم أجد إلا غرفة بسريرين .

وصمتت قليلا ، وقالت له مشجعة :

— ماذا يدور فى رأسك ؟

— خطر لى أن أعرض عليك أن تبيتى الليلة معى فى هذه الغرفة ، وأن نستفيد مرة مما نراه فى السينما الأمريكية ، نشد حبلا فى وسط الغرفة ونثبت عليه بطانية ، وبذلك نقسم الغرفة إلى غرفتين مستقلتين .

وخشى أن يكون قد أساء إليها فقال :

— فعل ذلك مرة كلارك جيبل فى رواية : « حدث ذات ليلة » .

فابتسمت وقالت :

— لا بأس ، إنى أثق فيك .

وأشرق وجهها وسارت إلى جواره مطمئنة ، وقالت :

— ما هى خططك لهذه الليلة ؟

— نذهب إلى التيفولى نمضى السهرة فيها ثم نذهب آخر الليل إلى غرفتنا .

— فكرة .

— التيفولى على بعد خطوات من هنا .

— هل زرت كوبنهاجن من قبل ؟

— أبدا ؟

— وكيف عرفت أن التيفولى قريب من هنا ؟

— ها هى ذى أضواؤه تتلألأ .

واتجها إلى الأنوار التى كادت أشعتها تبلغ السماء ، كانت واجهة حديقة التيفولى مؤتلقة بأنوار المصابيح الكهربية التى يكاد سناها يبهر الأبصار ، وكانت سيول الناس تندفع إليها من كل صوب وحدب ، وكانت تبدو للعيون كأنها غارقة فى سحر . ودخل أنور وإستر وهما مأخوذان بروعة المكان ، لكأنما كانا يخطران على أرض الأحلام .

وسارا فى طريق بين أشجار تسطع داخلها مصابيح ملونة ، تنشر على صفحات أوراقها أضواء خلابة تتفتح النفس لها ، وكان على جانبى الطريق جداول من الماء ثبتت فى قيعانها مصابيح ملونة ، فبدت أسطحها كألواح من بلور تعكس ألوان الطيف ، وانتشرت أضواء فضية جذابة على النبات الأخضر المنتشر على سطح الماء كأوراق البردى . كان المشهد جميلا يسبى العقول ويخلب الألباب .

ووقعت أعينهما على المطعم البلقانى الذى كان يتألق بالنور ؛ كان على هيئة قبة إلى جوارها مئذنة ، وكانت القبة والمئذنة ومبانى المطعم الأخرى تشع أنوارا تخطف الأبصار ، وسارا وهما مشدوهان من الروعة ، وقالت إستر :

ـــ رائع .. ساحر .. عاطفى ..

وقال أنور وعيناه مفتوحتان :

ـــ إننا فى أعظم حدائق العالم روعة .

ورأيا ملاهى لونابارك فهرعا إليها فى مرح ، وصعدابعض درجات وأصوات الرجال والنساء والأطفال تجلجل فيها حتى تكاد تغطى على الموسيقى المنبعثة من كل مكان .

وجاء قطار وراح ركابه يغادرونه ، فقفز أنور إليه وقفزت إستر إلى المقعد المجاور له ، وانطلق القطار فى كهوف مظلمة ، وراح يرقى مرتفعات عالية ويهبط فى منحدرات سريعة خطرة ، وارتفعت صيحات الركاب ، وتعلقت إستر برقبته وهى تضحك وتصرخ من الفزع وتتحرك حركات هستيرية ، وهو يغالب خوفه ويلتصق بها ويضمها إليه .

وهبطا من القطار ، وراحا يجوسان خلال الحديقة حتى بلغا ركنا هادئا انتشرت فيه مقاعد تحت خمائل صغيرة ، وكان فى كل مقعد عاشقان يتناجيان أو يتبادلان القبل .

وهبت ريح باردة لم يحفلا بها ، كانت رغباتهما تدفع صدورهما ، وذهبا إلى مقعد بعيد عن أنظار المارة وجلسا وراحا يتناجيان ، وغابا فى قبلة طويلة لم يفيقا منها إلا على أصوات الصواريخ التى بدأ إطلاقها فى سماء الحديقة .

وراح المطر يتساقط رذاذا و لم يحسا سقوطه ، قال لها :

— متى تفكرين فى زيارة مصر ؟

— فى إجازتى القادمة ، سأزور إسرائيل وسآتى إلى مصر بعدها .

— لو ذهبت إلى إسرائيل فلن تدخلى مصر .

فاعتدلت وقالت :

— لماذا ؟

— لأننا نقاطع إسرائيل ، لا نزال فى حرب معها .

— لماذا تكرهون اليهود ؟

— ولماذا هذا الافتراء ؟ إننا لا نكره اليهود ، إننى منذ أول لحظة وقعت فيها عيناى عليك عرفت أنك يهودية ، ولما قلت إن اسمك إستر تأكد لى ذلك ، فهل بدرت منى بادرة توحى بالكراهية ؟ إننا نمقت الصهيونية ، ونعرف كيف نفرق بينها وبين اليهودية .

— ولماذا تكرهون الصهيونية ؟

— لأننا نكره العدوان ، نكره الطغيان ، نكره الظلم .

— أوَليس من الظلم أن يظل اليهود مشردين فى الأرض قرونا مضطهدين لا وطن لهم ، وعندما يصبح لهم وطن يناصبهم العداء جيراتهم ؟

— كانت أرض الله واسعة ، فلماذا لم يختاروا إلا فلسطين .

— لأنها كانت وطنهم ، أرض المعاد .

— من قال ذلك ؟

— لو قرأت التوراة لعرفت أن اليهود كانوا منذ نشأتهم الأولى فى

فلسطين .

ـــ لو قرأت التوراة بإمعان لعرفت أن فلسطين كان لها أصحاب قبل اليهود ، ولو سلمنا جدلا أن اليهود كانوا فى فلسطين وخرجوا منها وشردوا فى الأرض ، أوَ يعطيهم ذلك حق العودة إلى فلسطين وتشريد أهلها ؟

فقالت فى إصرار :

ـــ أجل .

وهطلت الأمطار وزاد هبوب الرياح الباردة ، ووقف أنور وقال :

ـــ على هذا القياس يكون للهنود الحمر حق طردكم من أمريكا ، وتشردكم لتسكنوا فى الخيام لتصبحوا لاجئين .

ـــ فرق كبير بين عودة اليهود إلى فلسطين ، وعودة الهنود الحمر .

ـــ أجل فرق كبير حقا ، فالهنود الحمر أصحاب البلاد ، أما اليهود فلم يكونوا أصحاب فلسطين .. أترضين أن يشرد الصهيونيون أكثر من مليون إنسان بين شيخ وعجوز وطفل ؟ أترضين عن القسوة والتعذيب والتنكيل التى حاقت بالفلسطينيين العزل ؟ لقد ذاق اليهود ذل الاضطهاد على يد النازية ، فلما أتيحت لهم الفرصة نسوا ما قاسوه وجرعوا الفلسطينيين من نفس الكأس .

ـــ ما أهون هذا فى تاريخ البشرية !

ـــ هذه قسوة .. وحشية ، كان الصهاينة غلاظ الأكباد لم تعرف الرحمة يوما طريقها إلى قلوبهم .

— ومتى كانت الرحمة وسيلة من وسائل تقرير مصير الشعوب ، الزمن كفيل بحل مشكلة اللاجئين .

— كيف ؟

— سيفنون عن آخرهم يوما وتنتهى مشكلتهم .

واربد وجه أنور ، وجرت دماؤه حارة فى عروقه ، ولم يعد يحفل بالمطر المنهمر على وجهه وقال :

— ما أيسر أن تتصورى ذلك ، ماذا يضيرك لو مات مليون إنسان ما دمت أنت فى أمان ؟ لو أنك ذقت مرة مرارة الكأس التى يتجرعونها كل يوم ، ما خطرت مثل هذه الأفكار الخبيثة على قلبك .

ونظر إليها نظرة هائلة وقال فى غضب :

— الليلة ستذوقين طعم المر الذى يشربونه من سنين ، منذ ذلك اليوم الذى أصبحوا فيه لاجئين .

— أنور . ماذا تريد أن تفعل بى ؟

— سأجعلك لاجئة مثلهم ليلة واحدة .

— أنت مجنون ! أتريد أن تتركنى بلا مأوى فى ليلة عاصفة مثل هذه ؟ أتريد أن تقتلنى ؟

فقال فى حنق شديد :

— ما أهون هذا فى تاريخ البشرية !

ووسع من خطوه والمطر ينهمر والريح تصفر وهى تهرول وتصيح :

— هذه قسوة ، وحشية ، أنور .. أرجوك ، لا تتركنى هنا

وحدى ، هذه جناية .. سفالة .. أرجوك .. أرجوك ..

واندس فى سيارة وأغلق الباب فى وجهها ، وتركها والمطر يتساقط والريح تصفر والطريق خالية ، وهى تتلفت فى فزع ، وانطلق فى طريقه لا يلوى على شىء .

مضيفة

كان عماد فى زيارة ثقافية ليوغسلافيا ، زار مسارحها الجميلة المشيدة فى الجبال فى الهواء الطلق وشاهد الكولو ! رقصها الوطنى الذى ينبض بالدفء والحياة ، وسمع موسيقاها الخلابة ، وصفق مع الشعب الذى كان يملأ المدرجات .

وانطلق فى المساء إلى محطة بلغراد ليستقل القطار إلى ربيكا ، وذهب من توه إلى سريره فى القطار ، ومضى الليل وأصوات اندفاع العجلات على القضبان تدوى فى أذنيه ، وأخيرا رحمه النوم فراح فى سبات .

وفى الصباح استقل سيارة راحت ترقى به فى الجبل حتى بلغت قمته ، ووقفت أمام فندق المنظر الجميل فهبط منها وصعد بضع درجات ، ثم التفت خلفه ، كان المنظر رائعا حقا ، بدت الدور عند أقدام الجبل وفى بطن الوادى كقطع من الياقوت نثرت على ثوب أخضر .

وتناول طعام إفطاره ثم عاد إلى السيارة فانطلقت به إلى كهف لوبليانا ، فهبط منها ووقف ينظر إلى جموع الناس الذين جاءوا من كل فج لزيارة ذلك الكهف ، وصوب نظره إلى حيث تذهب حشود البشر فألفى فجوة واسعة ، ولكنها بدت كثقب إبرة فى الجبل الصخرى الهائل

الذى سد جميع المنافذ .

ومشى إلى باب الكهف ، ودلف إلى قاعة فسيحة رطبة ران عليها ظلام لم يكن يبدده إلا ضوء خافت منبعث من بعض مصابيح كهربية متناثرة ، ووقف مع الواقفين ، حتى أقبل قطار صغير يجر عربات أشبه بالعربات المستخدمة فى المناجم ، فرأى الناس يقفزون إليها ، فأسرع يركب حتى لا يقف فى ذلك المكان الموحش وحده .

وانساب القطار فى الكهف ، واشتدت الرطوبة ، وانعكست بعض أضواء خافتة على الصخور عجزت عن أن تبدد ذلك الظلام الثقيل الذى يسيطر على المكان .

واستمر القطار فى سيره والدليل يتحدث ويقص قصة الكهف ، قال إن طوله ثلاثة وعشرون كيلومترا ، وأن الألمان اكتشفوه أثناء الحرب العالمية الثانية لما اشتدت المعارك بينهم وبين اليوغسلافيين ، وأن مطاردة عنيفة جرت فيه بينهم وبين الروس .

ووقف القطار ، وطلب الدليل من الناس أن يهبطوا منه فما عاد يستطيع أن يتقدم ، فأمامه صخور لابد أن يعرج فيها على الأقدام ، وأضيئت مشاعل وراح الناس ينظرون على ضوئها ، كانت شعب كلسية تتدلى من السقف نحو الأرض ، وكانت أشبه بألسنة الشياطين ، وكانت بحيرات صغيرة من الماء متناثرة هنا وهناك ، وكسيت جدران الكهف بطبقة من الجير رسبت على مر السنين ، وكان من العجيب أن بعض أشكال فنية تكونت كأنما صنعتها يد فنان .

وقال الدليل إن الشعب المتدلية من السقف ، والعقود ، والأشكال الناصعة البياض التى كانت تبدو كالشموع ، والأشكال التى اتخذت هيئة أشجار وتماثيل ، تكونت فى ملايين السنين من الرواسب التى كانت تخترق سقف الكهف مع مياه المطر المتسربة من الشقوق .

ووقف عماد ينظر وهو مشدوه ، وكان البرد الذى كاد يخرم عظامه يخرجه من استغراقه فى تأمله اللذيذ ، وخطر له أن هذا الكهف وحده يصلح لإنتاج قصة سينمائية رائعة .

وانساب فى الكهف مع جموع الناس ، صعد إلى منحدر ، ومر فى مكان ضيق لا يسمح بمرور أكثر من إنسان ، ووقف على جسر عالٍ ينظر إلى الروعة التى تحته . وملأه شعور بأنه ضئيل ، وأنه لا شيء فى هذا الملك العريض .

ثم عاد إلى القطار الصغير وهو ينتفض من البرد وجلس ينفخ فى يديه ، وأصبحت أمنيته أن يخرج إلى الدفء والنور ، وانطلق القطار فى ممرات ضيقة حتى كادت أكتاف الركاب تحتك بالجدران ، ودار دورانا حادا قبل أن ينساب فى المدخل الفسيح .

وخرج عماد وهو ينتفض من البرد ، ولمح الشمس الساطعة فهرول إليها ووقف وهو يحرك رجليه ويفرك يديه كأنما يتعجل أن يسرى دفء الحياة فيه . وتناول طعام الغداء ثم انطلق بالسيارة إلى ربيكا على شاطئ البحر ، واستقل سفينة لتحملة إلى سبليت ، وأقبل الليل وتسرب الملل إلى نفسه ، إنه لا يستطيع أن يبقى طويلا فى حجرته الضيقة المغلقة التى

تكاد تعزله عن الدنيا بأسرها لولا تلك الطاقة المستديرة التى تطل على البحر ، فقام وارتدى ثيابه وصعد إلى سطح السفينة .

كان الرجال والنساء والأطفال ممددين على أرائك خشبية فى الهواء الطلق ، وكان بعض الناس يسندون رءوسهم وهم جالسون على الأرض إلى حاجز السفينة ، وكان فريق آخر يتسامرون ويضحكون .

وتمنى عماد أن يتمدد على أريكة خشبية ، وعجب لتلك الأمنية التى طافت برأسه بينا فى حوزته أفخر غرفة فى السفينة يتمنى أى راكب من ركابها أن يسعد بها ساعة أو بعض ساعة ، وفطن إلى أن الإنسان يزهد دواما ما فى يده ويمد عينيه إلى ما فى أيدى الآخرين .

وظل يغدو ويروح طول الليل بين غرفته وسطح السفينة ، يصعد فى الدرج القريب من غرفته ويهبط فى الدرج البعيد ، ويجوس خلال جموع الناس ، ويتسلى بمحادثة من يجد نفسه مصادفة إلى جواره ممن يتحدثون الإنجليزية من الرجال أو النساء

ووقف السفينة عند أكثر من مرفأ وهبط منها أناس وصعد إليها آخرون ، وكانت أشبه بالدنيا التى تلفظ أناسا لتستقبل واردين ، دون أن تحفل بالخارجين أو بالوافدين .

ووقفت السفينة عند مرفأ تبدو خلفه أشجار كثيفة باسقة ، والتفت رجل إلى عماد وقال له :

ـــ خلف هذه الأشجار مستعمرة للعرايا .

ـــ حقا ؟

وهز الرجل رأسه مؤكدا ، واشرأب عماد بعنقه ونظر فلم ير شيئا ، حتى خياله عجز عن أن يتصور ما يجرى هناك ، كل ما أمكنه أن يحسه أن الإنسان يحن دواما إلى العودة إلى طفولته ، ولكن هيهات !

وبلغت السفينة سيليت مع الفجر ، وهبط ركابها إلى الرصيف وكان موازيا للشارع الرئيسى فى المدينة ، وذهب عماد إلى فندق بارك وكان على بعد خطوات من شاطئ الاستحمام ، فراح يشق طريقه بين جموع الناس الذين جاءوا ينعمون بماء البحر وشمس الصيف والهواء الذى ينعش النفوس .

وارتمى فى فراشه بملابسه ، حتى إذا ما استراح قليلا أسرع إلى الشاطئ ليشارك الناس لهوهم ، وإذا به يجد الشاطئ صخريا ، وقاسى من صخور القاع التى كانت حادة كالسكاكين ، لم يجد شاطئا رمليا يرتمى فى أحضانه فعاد من حيث جاء .

وفى الليل عاد إلى حيث رست السفينة ، فحى الميناء هو الحى النابض بالحياة ، وألفى مقاهى كثيرة منتشرة على طول الشاطئ وقد غصت بالأجانب والوطنيين ، وعثر على مقهى فى فناء واسع به أكثر من شرف يصعد إليه ببعض السلالم الواسعة ، ويطل على الفناء بيوت قديمة ، فجلس يشرب القهوة ويدير عينه فى رواد المقهى ، وكان أغلبهم من الأمريكان والأوروبيين الذين جاءوا يمضون إجازاتهم على الشاطئ .

ولم يطق الجلوس طويلا ، فراح يجوس خلال الأزقة الضيقة الواقعة خلف المقهى . وكانت نقود إلى كنيسة قديمة ، فكانت أغلب الحوانيت

فيها تبيع هدايا دينية ومداليات تذكارية مطلية بالمينا ، وكانت الدور عتيقة تفوح منها رائحة القدم السحرية .

وراح يزور المسارح ودور السينما والآثار ، وفى عصر اليوم التالى انطلق فى سيارة إلى المطار فبلغه بعد أن قطع فى طريق وعر أكثر من ساعة ، وبعد أن جاس خلال قلعة تركية بنيت على ربوة عالية تتحكم فى الشريان الوحيد المنساب بين الجبال ، والذى يصل الميناء بداخل البلاد .

ووقف وحده على أرض المطار يتلفت ، حسب أنه جاء بعد أن طارت الطائرة فذهب يسأل فقيل له إن الطائرة ستتأخر ساعة ، فانطلق إلى البوفيه يتناول قدحا من الشاى .

وهبطت الطائرة فى المطار وكان أشبه بملعب كرة يكسوه العشب الأخضر . فحمل حقيبته وخف إليها وحده ، وصعد فى سلم صغير فوجد نفسه أمام المضيفة اليوغسلافية وجها لوجه .

كانت ترتدى ثوب الطيران الكحلى ، وكانت بيضاء البشرة . تميل إلى القصر قليلا ، جذابة ، وكان أجمل ما فيها خفة ظلها وابتسامتها اللطيفة التى تستقبل الركاب بها .

وحياها ونظر فى الطائرة فلم يجد فيها إلا راكبين ، فالتفت إليها وقال :

ــ شكرا على حفاوتكم البالغة بى ، ما كنت أحسب أنكم سترسلون إلىّ طائرة خاصة لتعود بى إلى بلغراد .

فأشرق وجهها بابتسامة ، ووقفت تنظر إليه وهو يفحصها فى جرأة عجيبة ، وقال :

ـــ ما أسعد حظى فى هذه الرحلة !

ـــ لماذا ؟

ـــ لأنى سأحظى بمضيفة جميلة ساعتين ، لن تحتفى خلالهما بأحد غيرى .

ـــ ساعتان ؟ أى منذ أن تقلع الطائرة إلى أن تحط فى مطار بلغراد .

ـــ نعم .

ـــ والراكبان الآخران ؟

ـــ نالا حظهما منذ بدأت الرحلة ، حتى وصلا إلى هنا .

فقالت وهى تبتسم :

ـــ معقول .

ـــ أرأيت ! إننى رجل عادل ، آخذ حقى وأعطى الناس حقوقهم .

ـــ اربط الحزام .

فقال وهو ينظر إليها فى رقة :

ـــ ما دمت هنا فأنا فى أمان .

وذهبت إلى الراكبين الآخرين وطلبت منهما أن يربطا حزام الأمان قبل أن تتحرك الطائرة لتحلق فى الجو ، وعادت وجلست إلى جواره ، وارتفع أزيز المحركات حتى لم يعد يسمع إلا أصواتها ، والتقت العيون أكثر من مرة ، ورفت على الشفاه الابتسامات .

واستوت الطائرة على الهواء ، وقامت المضيفة تقدم إلى الركاب بعض المرطبات ، وسرعان ما عادت تجلس بجواره تحدثه ويحدثها ، قال لها :

— روحى انجذبت إلى روحك منذ أول لحظة وقعت فيها عيناى عليك .

— إنى عاجزة عن أن أتصور هذا .

— لماذا ؟

— لأنى لا أومن بالروح .

وكان يعرف باقى الحديث جيدا فلقد سمعه من كل الفتيات اللاتى قابلهن فى أوروبا ، كن أشبه بطالبات فى مدرسة تلقين درسا واحدا حفظنه عن ظهر قلب ، فقال لها ليعطيها فرصة إتمام رأيها الذى لقنته تلقينا .

— وبم تؤمنين ؟

— أومن بما ألمسه بيدى ، بما أراه بعينى ، بما أشمه بأنفى ، بما أذوقه بلسانى ، بكل ما ألمسه بحواسى .

— وما سر انجذاب إنسان لإنسان ؟ ما الذى جعل نفسى تتفتح لك حتى تملأنى رغبة طاغية فى أن أتحدث إليك ؟ وما الذى جذبك إلى هذا الكرسى وجعلك تفضلين الحديث معى على الحديث مع غيرى من الركاب ؟ إن سر هذا الانجذاب أن روحى هفت إلى روحك ، وأن روحك استجابت لنداء روحى قبل أن تنفرج الشفاه عن كلمة .

— ربما .

— ألا يحدث عندما تمتلىء الطائرة بالركاب أن تحسى انجذابا إلى راكب بعينه دون باقى الركاب ؟

فهزت رأسها موافقة ، فقال لها :

ـــ لماذا ؟

ـــ لا أدرى .

ـــ لأن روحك وروحه ائتلفتا .

ـــ ربما ، لست واثقة .. ولكننى واثقة بكل ما يحسه جسدى .

فقال وهو يبتسم :

ـــ وأنا واثق من أنى أستطيع أن أرضى روحك وجسدك معا .

فقالت فى دهش :

ـــ أوه ! . من كان يصدق أن نصل إلى هذا و لم تمض عشر دقائق على لقائنا ؟!

ـــ كنا سنصل إليه بعد ساعة أو بعض ساعة ، وأظن أنه من الأفضل فى مثل عالمنا الذى يعدو فى جنون ، أن نختصر الوقت .

وصمتا قليلا ، ثم قال لها :

ـــ زرت بلادا كثيرة ؟

ـــ نعم .

ـــ واكتسبت تجارب كثيرة ؟

ـــ التجارب ليست كثيرة ، إنها تتكرر وقلما تتنوع .

ـــ زرت مصر ؟

ـــ زيارات عابرة قصيرة .

ـــ وما هى تجاربك هناك ؟

ـــ تكاد تكون معدومه ، إنى أصل إليها فى الليل ، وأذهب فى رفقة قائد الطائرة إلى فندق الوادى الأخضر حيث أرتمى فى فراشى لأستريح من التعب .

وصمتت وهى تنظر فى عينيه ، ثم قالت :

ـــ أتعرف فندق الوادى الأخضر ؟

ـــ لا .

ـــ إنه فى مصر الجديدة .

ـــ وماذا رأيت فى القاهرة غير الفندق وقائد الطائرة وسيارة الشركة التى تنقلك من المطار إلى الفندق ؟

ـــ لا شىء .

ـــ سأكون دليلك فى القاهرة ، وسأكشف لك عن سرها وسأجعلك تلمسين بحواسك سحرها ، وسأضيف إلى تجاربك تجارب جديدة .

ـــ وكيف ستجدنى ؟

ـــ سأنتظرك فى مطار القاهرة .

ـــ وكيف ستعرف ميعاد وصول الطائرة ؟

ـــ ما أيسر الحصول على مواعيد الطائرات اليوغسلافية .

ـــ لست المضيفة اليوغسلافية الوحيدة التى تعمل على هذا الخط ، هناك ثلاث مضيفات أخريات .

ـــ سأحتفى بجميع المضيفات اليوغسلافيات إكراما لك .

وتبسمت وقالت :

ــ على فرض أنك عثرت علىّ فلن نستطيع أن نتقابل ، لأنى سأذهب فى رفقة قائد الطائرة إلى الفندق .

ــ سأذهب خلفكما بسيارتى ، ثم أطرق باب غرفتك بعد أن يدخل قائد الطائرة غرفته ، وأنسل داخلا لأسعد بلقياك .

ــ سأكون مجهدة أكاد أموت من التعب ، فما إن أدخل غرفتى حتى أرتمى فى فراشى وأروح فى سبات .

ــ يكفينى أن أحدثك ، وأن أنظر إليك ، وأن أمرر يدى على شعرك الأسود الجميل حتى يطوف النوم بعينيك ، فأغطيك وأطبع على خدك قبلة ، وأغادر الغرفة على أطراف أصابعى كملاك طاهر برىء .

ــ أنت شيطان ، لا أدرى كيف جرفتنى إلى هذا الحديث .

ــ وما هى البلاد التى زرتها وأمضيت فيها وقتا طويلا ؟

ــ إنجلترا .. تلقيت فيها بعض دروسى .

ــ وما رأيك فى الشاب الإنجليزى ؟

ــ اشتهر بالبرود ، ولكننى وجدت أنه لا يختلف عن غيره من شباب البلاد الأخرى .

ــ والفرنسى ؟

ــ لا فرق بينه وبين الإيطالى أو الإنجليزى أو اليوغسلافى ، أو غيره من رجال البلاد التى كان لى بها ما تطلق عليه التجارب .

فقال وهو يهز رأسه موافقا :

ـــ قال حكيم : كل النساء سواء إذا ما أطفئ النور .

ونظر إليها وقال :

ـــ وأين ستمضين الليلة ؟

ـــ فى فراشى . إنى أعمل منذ الصباح الباكر وأكاد أنوء من التعب .

ـــ يمكنك أن تنامى من الآن حتى الثانية عشرة .

ـــ وبعد ذلك ؟

ـــ تأتين لمقابلتى . سأنتظرك فى فندق المتروبول لنتناول العشاء معًا .

ـــ لا أستطيع .

ـــ هل سيمنعك أهلك من الخروج ؟

ـــ أسكن مع صديقة لى .

ـــ لا أهل لك فى بلغراد ؟

ـــ أمى فى بلغراد ، ولكنها تسكن وحدها ، وأسكن مع صديقتى بعيدة عنها .

ـــ جميل . سنلتقى فى الثانية عشرة فى فندق المتروبول ، وسنقضى سهرتنا فى النادى الليلى .

ـــ لن آتى .

ـــ أنا واثق من أنك ستحضرين .

ورمقته بنظرة فاحصة وهى تقول :

ـــ أنت واثق من أشياء كثيرة .

وأضيئت الأنوار التى تطلب ربط الأحزمة استعدادا للهبوط ،

فقامت لتمر على الراكبين الآخرين فقال لها :

— سأنتظرك فى الساعة الثانية عشرة .

فهزت رأسها نفيا وهز رأسه تأكيدا ، وراحت الطائرة تهبط فى مطار بلغراد واستقرت على الأرض ، ووقفت المضيفة عند بابها وإلى جوارها شاب آخر من العاملين معها لتوديع الركاب الثلاثة .

وحمل عماد حقيبته وسار بين المقاعد ، فلما وصل إليها قال فى رقة :

— شكرا على هذه الرحلة الممتعة التى لا تنسى .

— مع السلامة . وداعا .

— بل إلى اللقاء . سنلتقى كثيرا ..

ولاحظ أن الشاب الآخر يرمقه فى اهتمام فقال :

— على الخطوط اليوغسلافية .

وهبط من الطائرة وراح يوسع من خطوه ، ونادى سيارة واندس فيها ، وانطلق مسرعا إلى الفندق ليستريح قبل أن يستأنف حياة الليل التى ينشرح لها صدره ، وتتفتح لها نفسه .

وفى العاشرة مساء ارتدى ثيابه وهبط يتمشى فى الطريق الذى يقع الفندق فيه ، وما ابتعد حتى التقى بأحد رفقائه ، فراحا يذرعان الشارع معا وهما يتحدثان ، وراح عماد يقص قصة رحلته التى انفرد بها ، وراح الزميل يقص عليه ما فعلوه فى أيام غيابه ، ووصلا إلى مبنى البرلمان ، وكان على جانبى المدخل تمثالان رائعان أحدهما يمثل حصانا وضع رجليه الأماميتين على كتف فلاح والآخر يمثل نفس الحصان ولكن الفلاح

استدار له ورفع رجليه الأماميتين على كفيه فى قوة وعزم ، ووقف الزميل ينظر إلى التمثالين مدة طويلة ثم قال :

ــ لا أفهم الفكرة من هذين التمثالين .

فقال له عماد وهو يرفع رأسه ينظر :

ــ التمثال يمثل السلطة فى أيام الظلم وقد ركبت الشعب ، والتمثال الثانى يمثل الشعب فى أيام العدل وقد رفع السلطة بيديه .

فقال الزميل فى حدة :

ــ ولكن الحصان راكب فى الحالتين .

ــ وماذا تريد ؟

ــ أن يركب الفلاح الحصان .

ــ لو ركب الشعب السلطة لكانت الفوضى .

ــ لو أراد التعبير عن هذا المعنى لكان عليهم أن يختاروا شيئا آخر غير الحصان ليرمزوا به إلى السلطة ، لأن من غير المألوف للعين أو للعقل تصور أن حصانا يركب رجلا ، أو أن رجلا يرفع حصانا بساعديه .

ــ الويل للفنون من طوال الألسنة وقصار العقول .

وبلغا فى سيرهما شارع المارشال تيتو ، وكان غاصا بالناس الذين يتسلون بقطع الطريق ذهابا وإيابا ، أو بالمنطلقين إلى الحديقة الواسعة الواقعة عند أحد طرفيه ، والتى تخفق جنباتها بأنفاس العاشقين .

ونظر عماد فى ساعته ، واستأذن من زميله فى الانصراف بحجة أنه ذاهب إلى فراشه يستريح ، وانسل بين الجموع وانطلق عائدا إلى الفندق

ينتظر .

وأشرفت الساعة على الثانية عشرة ، فجلس إلى مائدة يمكنه منها أن يرصد الداخلين ، وما أن أشارت ساعته إلى انتصاف الليل حتى ألفاها مقبلة فى ثوب أنيق ، فأحس زهوا وخف إليها يستقبلها ، وقبل أن يفتح فمه بكلمة قالت له :

ـــ لا تقل لى فى انتصار إنك كنت واثقا من حضورى ، فما ترددت فى الحضور وما رفضت الفكرة ، ولكننى كنت متعبة ، فلما أخذ جسمى نصيبه من الراحة جئت .

فقال لها فى رقة :

ـــ المهم أنك هنا ، وأنك معى الآن .

وعادا إلى المائدة ، وأشار إلى الجرسون فخف إليه ، وانحنى قليلا وقد أمسك فى يده اليسرى كراسة صغيرة وفى يده اليمنى قلما من رصاص وتأهب لتدوين طلباته .

قال له عماد :

ـــ ما هو أشهى ما عندك الليلة من طعام ؟

فقال الجرسون فى فخر :

ـــ لحم بغال .

وأنكر عماد ما سمع ، فقال فى دهش :

ـــ لحم بغال ؟

فقالت له فى بساطة :

— هذا الصنف لا يقدم إلا للضيوف الأعزاء ، للتعبير عن شدة الحفاوة بهم .

وهز رأسه فى ريبة وقال :

— لحم بغال للآنسة ، أما أنا فأى صنف من أصناف السمك .

والتفت إليها وقال :

— ويسكى ؟

— أفضل النبيذ على الطعام .

ودون الجرسون كل ما طلب وانصرف ، واعتدل عماد وراح يلتهمها بعينيه ، ثم قال لها :

— شكرا لك على مجيئك .

— بل شكرا لك على دعوتى .

— قلت لى فى الصباح إنك تسكنين مع صديقة لك ؟

— نعم .

— فى غرفة واحدة أم فى غرفتين متجاورتين ؟

— فى غرفة واحدة .

— وإذا حدث أن جاء إلى إحداكما صديق فماذا تعمل الأخرى ؟

— إنا لا نستقبل أصدقاءنا فى البيت .

— وقلت لى إن لك أما فى بلغراد ؟

— نعم .

— فلماذا لا تعيشين معها ؟

— أحب أن أعيش حرة .

— وأبوك ؟

— مات وأنا لا أزال طفلة .

— وتزوجت أمك رجلا آخر من غير شك .

فنظرت إليه نظرة طويلة ثم قالت له :

— لم أسألك عن مهنتك ولكنى أستطيع الآن أن أخمن ، إنك تعمل فى الشرطة أو فى المباحث .

فتبسم وقال :

— لا ، خانتك فراستك .

— فماذا يكون عملك وأنت دائم السؤال عنى وعن تجاربى وعن الشاب الإنجليزى والشاب الفرنسى والشاب الإيطالى ، وعن صديقتى ، وعن أمى ، وعن أبى ، إن لم يكن له صلة بالشرطة أو المباحث ؟

— قصاص ، أعيش من كتابة القصص .

فقالت وهى تهز رأسها فى استخفاف :

— تعيش على مآسى الناس ، على فضائحهم ، تتلمس نقط الضعف فيهم ، لا تتردد فى أن تعرض أعز الناس عندك عرايا على أنظار قرائك ، لا تحفل بضحاياك وقد تدوسهم بأقدامك فى قسوة ، ما دام فى ذلك بناء مجدك .

— إنى ألقى الأضواء على النفس البشرية ، أصور مآسى الناس لأزيد

من تجارب الآخرين ، ولأجنبهم دون أن أعظهم وعظا قد يكون ثقيلا على قلوبهم قسوة تجارب الذين تجرعوا كؤوس الحياة المريرة . وإنى عندما أصور شخصية سواء أكانت طيبة أم شريرة أحبها حبا يفوق حبى لأصدقائى .

ـــ لأنك أنانى لا تعرف من الحب إلا حب نفسك ، فالشخصيات التى تصورها ما هى إلا صور من ذاتك ، أو جوانب ضميرك .

ـــ لا أكتب عن شخصية إلا إذا أحسست تعاطفا معها وأحببتها من أعماق قلبى .

ودفعت كرسيها إلى الخلف وهى تقول :

ـــ آسفة ، لو كنت أعرف قبل أن آتى أنك تبحث عن قصة ، وأن اهتمامك بى لم يكن من أجلى أنا بل من أجل المادة التى قد أمدك بها ، ما جئت .

فقال لها وهو يرنو إليها فى استغراب :

ـــ لا أستطيع أن أفهمك .

ـــ بل تفهمنى جيدا ، هناك فتيات كثيرات يفرحن أن يكن مصدر وحى لصورة أو لوحة أو قصة ، فتيات يعشن فى الأوهام ، أما أنا فأمقت ذلك كل المقت ، لأنى أكره الجرى وراء الخيال ، لا أحب أن أضحى بنفسى ولا بسعادتى فى سبيل سراب خداع .

ـــ أى سراب ؟

ـــ أعرف أن الفنانين من أمثالك لا يعرفون كيف يسعدون ،

ولا كيف يسعدون من يوقعهم حظهم العاثر فى طريقهم .

ـــ هذا أغرب رأى سمعته ، فالفنانون أرهف الناس حسا ، وأرقهم قلبا ، وأكثرهم تفتحا للحب ، والسعيدة من تعلق بحبها قلب فنان .

فقالت وقد شردت ببصرها كأنما ترصد شبحا بعيدا :

ـــ الفنان يبخل بمشاعره على من يحب ويدخرها للمعجبين بفنه والمعجبات ، إنه كشريط يسجل فى صمت ويذيع بأعلى الأصوات .

ـــ من أين لك هذه الأفكار الغريبة ؟

ـــ كانت لى تجربة مريرة ، تجربة مثل التجارب التى تدعى أنك تسجلها لتقى الآخرين من التردى فيها . كانت مع رسام .

ونهضت وهى تقول فى زراية :

ـــ مصادفة غريبة أن ألتقى بفنانين وأنا فى عمر الورد !

فنهض وقال :

ـــ إلى أين ؟

ـــ وداعا .

ـــ ألا تنتظرين حتى تتناولى عشاءك ؟

ـــ أقسمت ألا تكون لى صلة يوما بفنان .

ـــ أرجوك ..

وتحركت لتغادر المكان ، ثم التفتت إليه وقالت :

ـــ أرجوك ألا تكتب قصتى .

ـــ لماذا ؟

فقالت فى سخرية :

ـــ لأن بها مصادفة مقابلتى لفنانين ، والمصادفات كما سمعت مما تقوض الأعمال الفنية ؟

وسارت فى عزم ، ولم يفكر فى أن يجرى وراءها بل جلس فى حنق ، وأقبل الجرسون ووضع أمامه طعامهما ، فنظر إلى لحم البغال وكان لونه أحمر شديد الحمرة ، وما كان فيه ما يؤذى النظر ، ولكن تقززت نفسه ، فدفع الحساب وانصرف دون أن يتناول شيئا .

على أنقاض برلين

كانت الساعة التاسعة مساء . وكانت أضواء مصابيح الشوارع فى برلين الشرقية خافتة ، وكان السكون مخيما يبعث الملل ، وسار عبد الرحمن فى الطرقات القريبة من محطة السكة الحديدية مطرقا لا يدرى سبب ذلك الضيق الذى يقبض صدره ، وتمنى أن يسمع أى صوت يؤنس وحشته ، ولو صوت بومة تنعق فى الخرائب التى نبتت فى بعض جنباتها أعشاب خضراء متطفلة أرادت أن تبث الحياة فى أنقاض دور زهقت روحها .

وخطر له أن ينطلق إلى برلين الغربية يسعد بالسهر هناك ، ثم يعود إلى فندقه ، وكان يبغضه فيه تلك الممرات الطويلة التى تفصل بين غرفته والحمام الذى لا يفتح إلا بإذن خاص ، والتى كان يذرعها كل صباح ، وهو يحمل على ذراعه ملابسه الداخلية ، ولكنه وأد ذلك الخاطر ، وقرر أن يتعشى فى مكان قريب ثم يعود لينام ، فالنوم الذى يحول بين المرء ومضايقات الحياة قد يصبح قمة المتعة التى يشتهيها إنسان !

ومشى تحت جسر تنطلق فوقه القطارات ، وراح يتلفت ، فالفى مطعما غاصا بالناس فدلف إليه ، وسار بين المناضد التى صفت فوقها

الأطعمة وكئوس النبيذ وأكواب البيرة ، ووصل إلى مائدة خالية فى ركن بعيد فجلس ، وما كاد يستقر فوق كرسيه حتى خف إليه الجرسون وراح يتحدث بالألمانية ، وفهم عبد الرحمن ما يبغى ، إنه يريد جواز سفره ليتأكد من أنه مقيم فى برلين الشرقية قبل أن يقدم له ما يطلب من طعام .

وأخرج عبد الرحمن من جيبه جواز السفر وفتحه ، وأشار بأصبعة إلى تأشيرة الإقامة التى تؤكد أنه ليس من نزلاء برلين الغربية الذين يفدون بالمترو ليستفيدوا بالفرق الهائل بين العملتين .

واطمأن الجرسون ووقف ينتظر ، فقال له عبد الرحمن :

ـــ أتتكلم الإنجليزية ؟

فقال الرجل بالألمانية :

ـــ لا .

وظل يتحدث ويشير إلى زميله الذى يعمل معه فى المطعم . ففهم عبد الرحمن أن الجرسون الآخر هو الذى يفهم الإنجليزية وأنه عما قليل سيأتى لخدمته . وذهب الجرسون وسرعان ما عاد بزميله الذى وقف ينتظر أوامر عبد الرحمن فى ثقة ، قال عبد الرحمن :

ـــ أتفهم الإنجليزية ؟

فقال وهو شامخ بأنفه :

ـــ نعم .

ـــ أريد روستو ، أى لحم إلا لحم الخنزير . أتفهمنى ؟

ـــ نعم يا سيدى .

وعاد عبد الرحمن يؤكد له :

ــ لا أريد لحم خنزير ، أتفهمنى ؟

ــ نعم يا سيدى .

ــ شكرا .

وانصرف الجرسون ، وراح عبد الرحمن يتسلى بمراقبة الناس ، كان أغلبهم من العمال والعاملات . وكانوا جماعات ، ولم يكن فى القاعة الواسعة من يجلس وحيدا إلا هو وسيدة تبدو عليها الأناقة . كانت تجلس إلى مائدة بجوار مائدته ويكاد كتفه يلمس كتفها .

كان شعرها أصفر وبشرتها بيضاء ، وكانت ممتلئة قليلا ، وعلى ارغم من المساحيق وأحمر الشفاه والأسود الذى ظلل الجفون واليد الفنية التى نشرت على صفحة الوجه لمسات تبرز الجمال ، كانت تجعدات العنق تؤكد أنها جاوزت الأربعين .

وأقبل الجرسون ووضع أمام عبد الرحمن صحفة بها قطعة كبيرة من لحم الخنزير ، وابتسم ابتسامة عريضة ، وتأهب لسماع كلمات الشكر ، وإذا بعبد الرحمن يقول فى غضب :

ــ قلت لك لا أريد لحم خنزير !

وراح الجرسون ينظر إليه فى بلاهة ويتحدث بالألمانية ، وضاق عبد الرحمن ذرعا بما يجرى فى المطعم ، وزاد فى ضيقه أن الجرسون الآخر أقبل راح الرجلان يتحدثان دون أن يفهم مما يقولان حرفا ، وهم بالانصراف ، وإذا بالسيدة الجالسة وحدها إلى جواره تقبل نحوه وتقول



أتسمح لى أن أكون دليلك الليلة ؟

— أتسمح لى أن أكون دليلك الليلة ؟

— بكل سرور .

والتفت إلى الجرسون وقالت بالألمانية :

— السيد لا يريد لحم خنزير ، يريد أى لحم إلا لحم الخنزير .

فقال الرجلان فى عجب وهما يهزان رأسيهما :

— آه .

ورفع أحدهما لحم الخنزير من أمامه ، وانصرف وزميله فى أثره ، وقالت السيدة لعبد الرحمن :

— أتسمح لى بالجلوس ؟

— هذا شرف عظيم لى .

فقالت وهى تجلس إلى جواره :

— شكرا .

فقال لها وهو يعتدل فى جلسته ليستقبلها بوجهه :

— ماذا تطلبين ؟

— شكرا ؟ تناولت عشائى .

ونظرت فى عينيه وقالت :

— مسلم ؟

— نعم .

— من أين ؟

— من مصر .

فقالت فى شرود :

ـــ العلمين !

كأنما كان هذا كل ما توحيه مصر إليها ، وساد الصمت بينهما قليلا ثم قالت :

ـــ ماذا تفعل فى برلين ؟

ـــ جئت أوقع عقدا مع إحدى الشركات الألمانية ، استمرت المفاوضات بيننا ثلاثة أيام و لم تنته بعد ، وقد تستمر أربعة أيام أخر ، وقد بدأت أضيق بوحدتى .

ـــ وحدك فى برلين ؟

فهز رأسه أن نعم وقال :

ـــ ما أقسى الوحدة !

واربد وجه السيدة ، ولاح فيه حزن وأسى ، واستشعر عبد الرحمن أنه مس جرحا فى نفسها فقال :

ـــ وأنت .. من أين ؟

فابتسمت ابتسامة تقطر مرارة وقالت :

ـــ لست أدرى .

ولاح الدهش فى وجه عبد الرحمن وقال :

ـــ كيف ؟

فقالت وهى شاردة وفى نبرات صوتها حزن عميق :

ـــ أنا ألمانية مجرية برازيلية ، إننى ضائعة .

وأراد عبد الرحمن أن يخرجها من ذلك الهلع الذى أطل من عينيها ، قال :

— وما الذى جاء بك إلى هنا ؟

— الحنين ، جئت أزور ما كان فى يوم ما بيتى ، وأسير فى الطرقات التى شهدت حب طفولتى وصباى ، وأشم عبير ماضىّ الذى كان مشرقا بالأمل . خافقا بأعذب الرؤى والأحلام .

وجاء الجرسون ووضع أمام عبد الرحمن صحفة بها قطعتان من لحم الضأن ولا شىء آخر ، وراح عبد الرحمن يأكل والسيدة ترقبه فى صمت ثم قالت :

— ماذا ستفعل الليلة ؟

— لا شىء .

— تعال معى فى جولتى .

ونظر إليها دون أن يرفع رأسه عن الطعام ، هزته البساطة التى تدعوه بها ، وقبل أن يفتح فمه بكلمة قالت :

— مرارة الوحدة فى فمى ، وقسوتها تلسع روحى ، وهذا ما دفعنى إلى أن أدعوك لتشاركنى فى جولتى ، لأجنبك ذلك الشقاء ولو لليلة واحدة .

فقال فى صوت متهدج :

— شكرا .

وانتهى من تناول طعامه ، وغادرا المطعم ، وراحا يسيران فى طريق

خيمت عليه الكآبة ، كانت جميع الحوانيت مغلقـة ، وكان الضوء المنبعث من المصابيح شاحبا واهنا كأنما كان زفرات قلب مريض .

ووقفت عند أرض فضاء لم يكن بها إلا بعض أعشاب تناثرت هنا وهناك ، ثم لا شيء غير السكون وكان أشبه بسكون الرموس ، وراحت تجيل عينيها فى المكان وقد ترقرقت فيهما الدموع ، ثم التفتت إليه وقالت فى صوت مشحون بالانفعال :

ـــ هنا كان بيتى .

وشردت ببصرها ولاح فى وجهها سهوم ، كانت تسترجع صور الماضى ، وهزت رأسها وقالت وهى تتنفس بصوت مسموع :

ـــ هنا عشت أسعد أيام حياتى ، هنا ذقت أرق مشاعر الحنان ، هنا خفق قلبى أول ما خفق بالحب ، كنت أهيم فى هذا البيت كفراشة طليقة خالية البال أرشف رحيق حب أبوى ، وألعب مع صواحبى ، وأذهب إلى المدرسة وما كانت تبعد عن منزلى هذا إلا بضعة أمتار .

والتفتت صوب خربة بعيدة قليلا ، وأشارت بأصبعها وهى تقول :

ـــ كانت هناك .

ثم عادت تنظر إليه وتقول :

ـــ وكانت هذه كل دنياى ، دنيا على الرغم من ضيق رقعتها مفعمة بالأمل ، فسيحة بالرجاء ، زاخرة بأنبل العواطف وأرق الإحساسات .

وصمتت قليلا ثم قالت :

ومرت السنون رقيقة كالنسيم ، عذبة كالأحلام ، وتفتحت كما تتفتح

الورود فى الربيع ، واتسعت رقعة دنياى ، أصبحت برلين كلها . واتسعت آفاقى ومداركى فكنت أهرع مع الشباب إلى كل احتفال من احتفالات النازى ، وأصفق فى حماسة لكل عرض يقوم بـه الجيش الألمانى ، وأهتف مع الجماهير لهتلر هتافات صادرة من أعماق . وتعلق قلبى بشىء آخر غير تعصبى للرايخ الثالث ، تعلقت بالأوبرا التى كانت فى حينا هذا ، والتى كانت تنبض بالحياة وتفيض علينا بالنور والإشراق .

وصرت أتردد على دار الأوبرا ، وتوطدت بينى وبين مغنياتها صداقة وطيدة ، ويا طالما حلمت بأن أكون نجمة من نجومها ، ولن أنسى ما حييت تلك الليلة التى وقفت فيها على خشبة المسرح أغنى لمقاعد الصالة الخالية قبل أن يسمح بدخول الجمهور ، سمعت ليلتها التصفيق يدوى فى أذنى من أرجائها ، وأدهشنى ذلك الوهم ، وأخذت أقلب عينى فى المقاعد والمقاصير وإذا بخيالى يقهر واقعى ، فلا أرى إلا بعينه الجمهور وقد غصت الأوبرا به ، وهو يصفق لى فى حماسة طاغية .

وسارت فى الطريق المتجه إلى دار الأوبرا ، كان مقفرا وكانت الكآبة تخيم عليه ، ولكن الذكريات كانت تضىء أرجاء نفسها فكان حديثها وضاء ينسكب فى روحه ، ويشيع فيه رضا .

وسارا الهوينى جنبا إلى جنب ، وقالت فى انفعال :

ــ وما كنت أحسب أن مستقبلى قد ارتبط بالأوبرا ، لم يكن على خشبة مسرحها بل كان فى مقعد من مقاعدها . كنت ذات ليلة أرقب ما يجرى على المسرح وأنا مسحورة بروعة الألحان التى كانت ترفعنى إلى

السموات العلا ، وانتهى المشهد وأنزل الستار وأنا مفعمة بالنشوة ، عائمة فى عالم صيغ من الرؤى العذاب ، و لم أفق من أحلامى إلا على صوت جارى الذى قال بلكنة أجنبية : « هذه روعة ؟ » ، فنظرت إليه ، كان شعره أسود فاحما ، وعيناه سوداوين تشعان بريقا يخطف القلب ، فاستشعرت كأن أنامل رقيقة راحت تعبث بأوتار فؤادى ، وانفرجت شفتاى عن بسمة عذبة أحسست طعمها فى وجدانى ، وأقبلت عليه وأنا متفتحة النفس أحادثه ، لم يكن ألمانيا بل كان قادما من المجر يقضى فى برلين بضعة أيام .

وعقب انتهاء السهرة خرجنا معا ، ورحنا نجوب فى أرجاء برلين ، وقبل أن ننصرف ليعود كل منا إلى مقره تواعدنا على اللقاء . وترادفت مقابلاتنا ، وشغفت به حبا . و لم يعد فى حياتى شىء سواه ، وقدمته إلى أبى وأمى ، وفى ذات يوم عقب عودتنا من نزهتنا انفردت بى أمى وسألتنى عما ستؤدى إليه هذه الصداقة فقلت لها : لست أدرى ، وفاضت مشاعرى حتى أننى بكيت ، وأخفيت وجهى فى صدر أمى وأنا أردد فى انفعال :

« أهواه .. أهواه .. أهواه » .

و لم يبق على رحيله إلا ثلاثة أيام فلم نكن نفترق لحظة ، خيل إلىّ أن هذه الأيام هى كل ما بقى من حياتى فلم أعد أتحفظ فى إظهار حقيقة مشاعرى ، كنت أحسب أننى وحدى المتلظية بنار الصبابة ، وكم كانت دهشتى عندما قال لى إنه لا يستطيع أن يعيش بدونى ، وعرض علىّ أن

نتزوج وأن نعود إلى بلاده معا .

كدت أطير من الفرح ، نسيت أهلى ووطنى وكل ما يربطنى بهذا الوجود ، ولم أعد أذكر إلا أننى سأكون دواما معه ، مع من خفق بحبه قلبى .

وعدت إلى دارى وأنا مفعمة بنشوة لذيذة كادت تخدر كل حواسى ، وأعلنت لأبى وأمى النبأ . لم يفرحا به وتلقياه فى وجوم ، ولما أفاقا من المفاجأة راحا يحاولان أن يبصرانى بمساوىء ما أنا مقدمة عليه ، ولكننى أغلقت نفسى دونهما . كان حبى له يملأ كل جوانحى ، فلم يكن هناك وزن لأى اعتبار غيره .

وقالت لى أمى إننى سأفقد جنسيتى بهذا الزواج وسأحمل جنسيته ، وراحت تحدثنى عن الجنس الآرى وفضائله ، فقلت لها إننى سأحمل جنسية الحب الخفاق ، ولم تستطع دموع أمى ولا توسلات أبى أن تثنينى عن عزمى ، وأخيرا خضعا لإرادتى .

وفى كنيسة حينا عقد القران ، وفى لحظة أصبحت له زوجة ، وفقدت جنسيتى وحملت جنسية من خفق بحبه قلبى ، صرت هنغارية قبل أن تطأ أرض المجر قدماى .

وحانت ساعة الوداع ، وراحت أمى تذرف الدموع ، وبكى أبى ، وارتميت فى أحضانهما وعبراتى تخنقنى ، وكدت أضعف ، ولكن ما أن مد يده وجذبنى فى رقة حتى تبخرت كل مخاوفى وأحزانى وسرت معه لا أرى شيئا سواه .

وذهبنا إلى بودابست ، ورحنا نهيم فيها ، والسعادة تخفق فى قلوبنا ، والنشوة تملأ جوانحنا . أمضينا ليالى شاعرية فى زورق يتهادى فى الدانوب الأزرق ونحن نتعانق ، ونتبادل القبل ، ونرسم لمستقبلنا صورة مشرقة ، مفعمة بالأمل ، نابضة الرجاء .

ويا طالما أخذنى إلى مطعم متياس لنتناول طعاما هنغاريا ، ونشاهد رقص الغجر ، ونصغى إلى موسيقى التسيجان . وفى ذات ليلة فاضت نشوتنا فجذب شالا من على كتف راقصة ووضعه على كتفى ، ودفعنى إلى حلبة الرقص ، وهو يصفق لى على الأنغام ، فرقصت والمرح يدغدغ كل مشاعرى ، ذقت ليلتها حلاوة الإحساسات التى تدفع المرء إلى الرقص طربا .

وذرعنا الجسر الذى يفصل بين المدينتين الجميلتين بودابست مرات وذراعه ملفوفة حول خصرى وتبادلنا القبلات فوقه ونحن نرصد سباق الزوارق فى النهر ، ونرقب السفن التى تمخر عباب الدانوب الأزرق فى الليل .

وهربنا تحته من حرارة الشمس مرة ، ورحنا نشارك بعض الأطفال فى محاولاتهم الساذجة لصيد السمك .

كان ذلك من سنين ، ولكننى أذكر كل شىء كأنما يقع الآن ، وأكاد أميز ملامح الأطفال ، وجندى المرور الواقف عند تقاطع الجسر بالطريق الذى يقع فيه فندق جاليرت .

حتى هذا الفندق حملنى إليه ، تناولنا فيه غداءنا مرات ، ومرحنا فى

حوض سباحته الرائع الذى أقيم فى مبنى هائل مرتفع غطى بسقف من زجاج ، إننى لا أنسى يوم راح يعدو خلفى وهو بالمايوه وأنا بالمايوه الوردى الذى أخذته معى من ألمانيا دون أن أدرى ماذا سأفعل به ، ولحق بى وحملنى بيديه وضمنى إليه وهو يقول : « إننى سعيد لأننى أضم ألمانيا كلها إلى صدرى » .

وفى عصر ذلك اليوم صعدنا إلى قمة الحديقة الجميلة الواقعة على يسار فندق الجاليرت ، وعرجنا فى درجات كثيرة حتى تقطعت أنفاسنا ، واسترحنا مرات على المقاعد التى وضعت على مدرجات الحديقة ، وبعد رحلة طويلة شاقة وصلنا إلى مكان فى الحديقة ونحن على الرغم من التعب الذى مشى فى أوصالنا فى قمة السعادة ، وارتمينا على العشب وأنفاسنا تتردد فى صدورنا بأصوات عالية ، وبقينا مدة ونحن نلتقط أنفاسنا ؛ فلما انتظم زفيرنا وشهيقنا لف ذراعه حولى ، ورحنا ننظر إلى الجسر وإلى النهر وإلى بودابست التى كانت تحت أقدامنا .

وقال لى وهو يضغط على ذراعى : « سنأتى يوما إلى هنا ومعنا أولادنا ، وسأقول لهم إنهم مثل هذا الجسر الذى يربط بين مدينتين جميلتين ويجعلهما مدينة واحدة ، إنهم جسر بين المجر وألمانيا » .

واسترسلنا فى أحلامنا ، ولم نصح منها إلا على دوى المدافع وانفجارات القنابل ، كان هتلر قد أطلق إشارة البدء ليجتاح أوربا ، وهب زوجى يدافع عن بلاده ويقف فى وجه بلادى .

وعرف الخوف طريقه إلى قلبى ، صرت قلقة أخشى ما يخبئه المستقبل

لى ، وما أسرع ما تحققت مخاوفى ، قتل زوجى وأصبحت وحيدة فى بلد غريب لم يربطنى به إلا قلب كبير خفق بحبى ، ومزقه أهلى ، من حلم يوما أن يجعل أبناءه جسرا بينهم وبين أهله .

وأظلمت الدنيا فى وجهى وضاقت بى ، ولم أجد أمامى إلا أن أترك المجر وأذهب بعيدا لعلنى أنسى القسوة التى كتمت أنفاس زهرة حبى قبل أن تتفتح براعمها ، وحزمت أحزانى وانطلقت إلى البرازيل ، وفقدت جنسيتى مرة ثانية .

وراحت السنون تمر ، واندمل جرح قلبى ، وكدت أنسى كل ما كان بينى وبين زوجى ، ولكننى لم أنس أبدا وطنى . كان الحنين إليه يعاودنى ، كنت أحس إحساسا طاغيا يدفعنى للعودة إليه .

وجئت إلى برلين فى السنة الماضية ، وحاولت أن أسترد جنسيتى ، وقامت فى سبيل ذلك صعوبات ، فعدت إلى البرازيل لأزيل كل ما يحول بينى وبين وطنى ، وجئت هذا العام لأعاود محاولاتى . لم يبق لى فى حياتى إلا رغبة واحدة ، أن أعود إلى وطنى .

فقال لها عبد الرحمن :

— وهل ذللت كل العقبات ؟

فقالت فى مرارة :

— ليس بعد .

— وهل وجدت أحدا من أهلك عند عودتك ؟

فقالت وقد شردت ولاح فى وجهها أسى :

— لم أجد منهم أحدا ، حتى أصدقائى ومعارفى لم يبق أحد منهم .

— وما الذى يدعوك إلى الإصرار على العودة ، ما دام لم يعد لك أهل ولا أصدقاء ؟

فقالت فى صوت متهدج مشحون بالمحبة :

— أنقاض بيتى . هذا الطريق الذى شهد أسعد أيام حياتى ، عبير الماضى الذى أشمه .

وراحت تجيل عينيها فى المكان الذى تلفه كآبة ويسيطر عليه سكون أشبه بسكون الرموس ، وقالت فى انفعال جعل الدموع تطفر إلى مآقيه .

— حقا الوطن غال .

البغي المقدسة

انتثرت المقاعد والمناضد على طول أرصفة الشارع فى روما ، وغرقت المدينة فى أنوار النيون المتألقة كالفضة والياقوت والفيروز ، وجلست إلى نضد أمام محل ستريجا أرقب الغادين والغاديات ، والأنوار الجميلة المتألقة على الطوار الآخر المنعكسه على الخيام التى تظل مقاهى الطريق ، فأحس راحة وصفاء جميلا ينتشر فى ذهنى .

وجعلت أتلفت فى نشوة ، فلمحت بجوارى فتاة بيضاء البشرة زرقاء العينين ، يتوسط ذقنها طابع حسن عميق ، كانت ترتدى ثوبا بسيطا ولكنه أنيق ، عارية الساقين ، فى قدمها نعال أنيق ، وقد طلت أصابع قدميها بلون كأنما مزج أحمره بفضة .

والتقت عيناى بعينيها مرة وظللنا ينظر كل منا إلى الآخر برهة و لم يختلج لها طرف ، فوجدت نفسى أشيح بوجهى عنها وأتشاغل بمراقبة سيارات الفيات الصغيرة المتدفقة فى شرايين المدينة كالسيل ، ولكن سرعان ما عدت أنظر إلى جارتى الحسناء التى يكاد كتفى يلمس كتفها .

وولدت على شفتيها بسمة رقيقة ، والتمعت عيناها ببريق ترحيب ، ثم قالت وهى تنهض لتجلس على المقعد الموضوع على الجانب الآخر من

المنضدة :

— أتسمح لى ؟

فقلت وأنا أنهض مرحبا :

— تفضلى .

وجلست وهى تقول :

— اغفر لى تطفلى ، أرجو ألا أكون أزعجتك .

— بالعكس ، إننى وحيد هنا ، وإنك بتفضلك هذا تملئين فراغ حياتى .

فاقتربت برأسها منى وقالت فى نبرات حادة :

— ألا تحدثنى قليلا عن البوذية ؟

فقلت وأنا أبتسم :

— إننى أستطيع أن أحدثك طويلا عن البوذية ، ولكن ما الذى أغراك على طلب هذا منى ؟

فقالت وقد اتسعت عيناها دهشة :

— أليست البوذية ديانتك ؟

— لا .

— ألست من سيلان ؟

فقلت وأنا أضحك :

— سنيوريتا ، لست أول من يخدعه شكلى ، كثير من الناس حسبونى هنديا أو أندونيسيا .

ـــ آسفة !؟ . من أين أنت قادم ؟

ـــ من مصر .

ـــ مسلم ؟

ـــ نعم .

ـــ إن ديانتك تشبه ديانتى كثيرا .

ـــ وما ديانتك ؟

ـــ يهودية .. اسمى إستر .

ـــ سموك على اسم الملكة ، أليس كذلك ؟

وأومأت برأسها أن نعم ، وقلت وأنا أبتسم :

ـــ وهل اسم عمك مردخاى ؟!

فقالت وقد التمعت عيناها ببريق فرح :

ـــ أوه ! قرأت التوراة ؟!

ـــ قرأتها أكثر من مرة وأحفظ بعض آياتها عن ظهر قلب .

فقالت وهى تزداد قربا منى :

ـــ وأنا أعيش فى التوراة ، وكثيرا ما أرى فى أحلامى صور تلك العصور .

ـــ غريب ن تعيش فتاة جميلة مثلك فى العهد القديم . وحولها العالم بمفاتنه ومغانيه .

فقالت فى صوت حالم :

ـــ يا طالما تخيلت نفسى راعوث وراشيل وقديسات بنى إسرائيل .

— وما رأيك فى إستر الملكة ؟

— القديسة أرجوك .. إنها أعظم قديساتنا ، إنها المثل الأعلى لكل فتاة يهودية مؤمنة .

— لقد زينها عمها مردخاى بيديه وقدمها إلى ملك العجم فيمن قدم من جوارى ، فماذا كان يحدث لو أن الملك قضى منها وطرا ثم هجرها كما هجر الجوارى الأخريات .

— إنه قدمها بيديه لينقذ شعبه ، وقد استولت على لب الملك وقادته إلى ما فيه خير بنى إسرائيل .

— ماذا كان مآلها لو أخفقت فى الاستيلاء على قلب الملك ؟

— كان لا بد أن تضحى ، فليس طريق القديسات مفروشا بالورود .

وارتفعت ضوضاء السيارات ، وعكر صفو خلوتنا أصوات الرجال والنسوة الذين انتشروا حول الموائد وراحوا يتسامرون ويضحكون ، وقالت إستر :

— هل تنتظر أحدا هنا ؟

— قلت لك إنى وحيد ، وإننى لا أعرف أحدا فى روما .

— ما رأيك فى أن نقوم نضرب فى طرقات المدينة ، ونتحدث ونحن منطلقون ؟

فقلت وأنا أنهض :

— هيا .

وسرنا فى شارع روما والضجيج والعجيج لا ينقطعان ، والأنوار

المتلالئة تأخذ بالأبصار ، وحديثنا عن أنبياء بنى إسرائيل لا ينقطع .
وبلغنا نافورة موسى : أسدان عن يمين ينظران إلى أسدين عن شمال والماء يتدفق من أفواهها ، وتمثال موسى قائم يشير بأصبعه والماء يتدفق من حوض تحت أقدامه ، والأضواء تنتشر فى تناسق وهدوء ، وتطلعت إلى التمثال طويلا ، وقالت لى إستر :

ـــ هذا التمثال لا قيمة فنية له ، إنه مجرد محاكاة لتمثال موسى الآخر الجبار ، هل رأينه ؟

ـــ نعم ، وقد وقفت أمامه مشدوها ساعات أنظر إلى عظمة التفاصيل .

والتفت إلى إستر وقلت لها :

ـــ نبتت فى رأسى فكرة الآن لماذا لم يصنع اليهود تمثالا لموسى ؟ ولماذا لم يخلدوا آثارهم بالتماثيل وقد عاشروا الفراعنة ؟

ـــ لأن ديننا ودينكم حرما التماثيل .

ـــ ولكن اليهود ما إن تركهم موسى وذهب إلى الجبل ليناجى ربه حتى صنعوا عجلا من ذهب .

ـــ لقد زجرهم موسى على ذلك بعد عودته أشد زجر ، وعاقبهم الله بسببه أربعين سنة فى التيه .

واستأنفنا سيرنا ، ولاحت النافوره القائمة فى ميدان بيازا ديللا روبيليكا عن بعد كأنها مسلة من نور ، وعبرنا الطريق حتى إذا ما بلغنا ممر أسيدار التجارى عرجنا إليه لنفر من ضوضاء المدينة الصاخبة التى

تتدفق فى طرقاتها سيارات الفيات والفسبا ، ويتدافع بالمناكب على أفاريزها فتيات شامخات الصدور ممتلئات الأرداف . تلتف حول أعناقهن أذرع شبان أقوياء ، وتعبث فى آذانهن أو ذقونهن أو أعناقهن أو شعورهن أصابع جريئة خبيرة .

بلغنا محل حلوانى دانينو وقد انتشرت أمامه بعض الكراسى من الخيزران الأنيق لف حول قوائم من الحديد دقيقة ، فالتفت إلى إستر وقلت لها :

ـــ هنا مكان هادئ . ما رأيك فى أن نجلس ونتسامر ؟

ـــ الأضواء هنا صارخة لا تساعد على انسراح الخيال .

وصمتت قليلا ثم قالت :

ـــ إذا كنت تعبت من السير فلا بأس من أن تستريح قليلا .

ـــ إن هوايتى المشى ، و ..

وقالت قبل أن أتم حديثى :

ـــ وأنا أيضا ..

ثم انفرجت أسنانها عن ابتسامة رقيقة ، وطوحت رأسها لتصلح انسياب شعرها الذهبى الضارب إلى حمرة وقالت :

ـــ كنت أحسب أنه قلما يتفق اثنان فى هذا الوجود .

ثم أعقبت كلامها بضحكة ممدودة ذات جرس امتازت به نبرات بنات اليهود ، وقطعنا الممر التجارى حتى بلغنا نهايته ولفظنا إلى شارع كورنتو ، وظللنا فى سيرنا حتى بلغنا الميدان واتضحت لنا النافورة ، كان

فى وسطها رجل رومانى قوى تنبثق من نافورة بين يديه المياه عالية والأضواء تكسوها فتبدو كأنها تصل عملاق يتطاول إلى السماء ، وحول التمثال دائرة تنبثق منها المياه المضيئة فى أنصاف دوائر رائعة ، وخارج هذه الدائرة حوريات أربع عاريات تبرز كل فتنتهن ، إحداهن تكاد تسقط من على صهوة جواد كبا ، والثانية ترقد على ظهر سلحفاة ، والثالثة تمتطى أوزة ، والرابعة ممسكة بعنان بجعة ، كان منظرا يأخذ بالألباب ، وقد وقفت على سلم المبنى القديم الذى يطل على النافورة كما يطل التاريخ على حاضرنا وأنا مشدوه .

كانت السيارات مكدسة فى الميدان ، و لم يكن هناك موضع لقدم ، ورأيت فى طرف الميدان عربة حنطور وحيدة واقفة فى ذلة ، كأنما تستشعر حقارة طبقتها إذا قيست بالسيارات المتألقة .

وداعبتنى فكرة فقلت لإستر :

ــ ما رأيك فى أن نذهب إلى فيلا برجيزى ؟

فقالت وهى تضحك :

ــ هذه أول مرة يذهب فيها فتى وفتاة إلى فيلا برجيزى ليتناقشا فى الدين .

وسارت فى رفقتى تهز أعطافها ، قلت :

ــ نركب ٣٦ .

فقالت فى إنكار :

ــ إن رقم ٣٦ لا يصل إلى فيلا برجيزى .

كانت تحسب أننى أشير عليها بركوب الترولى باس ، وكنا قد وصلنا إلى العربة الحنطور فأشرت بأصبعى إلى الرقم المكتوب بالأبيض على ظهر الحنطور وقلت :

— ٣٦ .

وجلجلت فى الجو ضحكتها ذات الجرس الخاص ، وفى خفة الطيف قفزت إلى المقعد الخلفى وفسحت لى مكانا إلى جوارها ، وانطلق بنا الحنطور يخب فى طرقات روما ، أعظم متحف للمسيحية . وراحت إستر ترتل نشيد الأناشيد بصوت أخاذ نفذ إلى أعماق حتى إننى أطرقت برأسى أصيخ السمع وكلى خشوع .

وكانت السحب تتجمع فى السماء ، ومال الجو للبرودة ، ولكن حرارة أحاديثنا كانت تمدنا بدفء حبيب ، ووصلنا إلى فيلا برجيزى وكانت حديقة كبيرة ، انتثرت على جانبى طرقاتها مقاعد خشبية ، وعلى كل معقد حبيبان متعانقان غائبان عن الوجود .

وأعطيت الحوذى أجره فهتف مسرورا :

— جراسيا !

وابتسم لى ابتسامة كلها تشجيع ، وعيناه تحرضانى على التمتع بالفاتنة .

وذهبنا إلى مقعد منعزل ، وكان الظلام يخيم على المكان ، والهدوء شامل لا يعكره إلا رنين قبلة أو آهة ندت من فم نشوان ، قالت :

— إننى أضيق بهذه المادية الطاغية المستبدة بالعالم ، وبذلك الإلحاد

البغيض المسيطر على العقول .

فقلت فى هدوء :

ـــ أعتقد أننا مقبلون على عصر جديد من الإيمان العميق .

فقالت وقد اتسعت عيناها فرحا :

ـــ حقا ؟ كم هذا يسعدنى .. تحدث .. قل .

ـــ العالم يقاسى الآن من نهاية موجة الإلحاد التى غمرته فى القرن الماضى .

ـــ وهل تعتقد أن هذه الموجة ستنحسر ؟ وكيف ؟ وما الذى يقود الناس إلى الإيمان ؟

ـــ الإيمان المتبصر مرحلة أرقى من الإلحاد ، يحتاج إلى أفق أرحب ، لقد بهرت التجارب العلمية التى أجراها البشر فى القرن الماضى ومطلع هذا القرن أبصار الناس .. صاروا لا يؤمنون إلا بما تحلله المعامل ، وإن نفس هذه المعامل هى التى ستقودهم إلى الإيمان .. البوتقة وأنبوبة الاختبار والأجهزة الكثيرة المعقدة التى صنعها الإنسان .

ـــ إنى لا أفهم ما ترمى إليه .

ـــ انتظرى .. لقد فتت العلماء الذرة .. أليس كذلك ؟

فأومأت برأسها أن نعم و لم تنبس بكلمة ، ورحت أقول :

ـــ هؤلاء العلماء هم خلاصة العقول المؤمنة بالمعمل والبوتقة وأنبوبة الاختبار ، أليس كذلك ؟

فعادت تومئ برأسها أكثر من مرة ، كأنما تستحثنى على الإسراع ،

قلت :

ـــ هؤلاء العلماء عندما فتتوا الذرة وجدوا شموسا وأقمارا وعالما منظما تنظيما عجيبا لا يمكن أن يكون إلا من خلق خالق قادر عظيم ، فآمنوا بوجود قوة عليا هائلة ، آمنوا جميعا وقال بعضهم بعد نجاحه العظيم فى تفتيت الذرة وعجزه عن تعليل الظواهر الرائعة التى شاهدها تعليلا علميا : هنا الله .

فقالت وهى تلتصق بى وفى عينيها بريق غريب :

ـــ أتظن أن انتظارنا لهذا العصر سيطول ؟!

ـــ لا أظن ، إما أن يؤمن الناس أو تكون النهاية .

وتساقط المطر فقمنا نحتمى بشجرة ، وقلت وأنا أجذبها من يدها وعلى فمى بسمة :

ـــ هذه هى البداية .

ـــ بداية الإيمان أو بداية النهاية .

ـــ الله يدرى .

وأخذت أتلفت أبحث عن سيارة ، ولمحت تاكسيا مقبلا فناديت :

ـــ تاكسى .. تاكسى .

وجلجل صوتى فى الحديقة ، وهتك الهدوء الذى ما كان يعكره إلا صوت ارتطام المطر بالمقاعد وحفيف أوراق الشجر ، وأقبل التاكسى وأسرعنا إليه ، وما كدنا نغيب فيه حتى قلت :

ـــ ما رأيك يا إستر فى أن نلتقى غدا فى نفس المقهى لنستأنف

حديثنا .

— غدا السبت ولا بد أن أذهب إلى الكنيس .

— لو كنت مسيحية لعرضت عليك أن أذهب معك ، ولكننى أعرف أنكم لا تحبون أن يدخل الكنيس أحد غير بنى إسرائيل .

— هذا حق .

— إنكم لا تحبون أن يدخل أحد فى دينكم ، تخشون أن تزدحم الجنة بالأمم .

فقالت فى ثقة :

— الجنة لأبناء إبراهيم .

فقلت مداعبا :

— نحن من أبناء إبراهيم ، إننا من نسل إسماعيل .

وصمتت وإن كانت الألفاظ تتراقص على شفتيها ، فقلت لها :

— تحاولين وأد الكلام الذى يوشك أن يولد على شفتيك ؟! إننى أعرف ماذا تريدين أن تقولى ، قوليها ولن يجرح ذلك شعورى .. الجنة لأبناء إسحاق ، بل لأبناء يعقوب : إسرائيل بالذات .. شعب الله المختار ، أليس كذلك ؟

فقالت وهى تطرف بعينيها ورموشها تتراقص :

— ما رأيك فى أن نلتقى بعد غد فى الخامسة مساء فى ستريجا ؟

وعدت إلى الفندق وأنا أفكر فى هذه الفتاة الجميلة التى تعيش فى عالم مادى لا يعرف أهله إلا لذة الجسد ، ومع ذلك تأبى إلا أن تعيش فى

العهود المقدسة . وجاء يوم السبت وانقضى نهاره ووفد ليله ، وخطر لى أن أنطلق إلى مونت ماريو أشاهد من فوقه روما العظيمة التى يضمها الجبل إلى صدره كما تضم الأم الحنون وليدها .

واستدعيت تاكسيا وانطلق بى إلى ميدان أسبانيا ، ثم أخذ يلف ويدور حتى وصل إلى قبر الجندى المجهول ، وإلى المكان الذى كان يقف الدوتشى فيه ساعات يخطب فى أنصاره المفتونين به . وفطنت إلى أن السائق يستغل جهلى بالمدينة ويسلك أطول السبل المؤدية إلى الجبل ، ولكننى لم أغضب فقد كنت لا أدرى كيف أمضى مسائى .

وراحت السيارة ترقى فى الطريق الصاعد ، وبدأت أضواء روما تظهر تحت بصرى رويدا رويدا ، وظلت السيارة فى صعود ، وخطر لى أن أقف طويلا أمعن النظر فى المدينة الغارقة فى النور ، ولمحت سيارة واقفة على جانب الطريق ، فأغرانى ذلك على أن أطلب من السائق أن ينتظر .

ووقفت السيارة وهبطت منها ، وجعلت أقلب النظر فى قبة الفاتيكان ، وفى الأضواء المتألقة من النافورات والمسلات والتماثيل وفى الإعلانات الكثيرة المضيئة التى تكاد تغشى البصر ، ووقفت خاشعا مدة كأنما كنت فى صلاة ، ثم سرت لأعود إلى السيارة التى كانت تنتظرنى .

ودنوت من السيارة الأخرى التى كانت واقفة على جانب الطريق ووجدت منظرا جذب بصرى إليه وإن حاولت أن أشيح عنه بوجهى ، كان فى المقعد الخلفى فتى وفتاة تجردت من بعض ثيابها .

وهممت باستئناف سيرى ، ورفعت الفتاة رأسها ونظرت فإذا بعينيها

تلتقيان بعينى ، وإذا بى أستشعر مساكهربيا ينساب فى من رأسى إلى أصبع قدمى ، لقد كانت إستر الفتاة التى تعيش بين دفتى كتاب مقدس .

واندفعت إلى السيارة لا ألوى على شىء ، وانطلقت بى وأنا شارد أستشعر على الرغم منى شعور من فجع فى شىء عزيز . إننى لم أقابل إستر إلا بالأمس فقط ، و لم يكن بينى وبينها إلا مجرد أحاديث ومحاورات حول الدين ، وعلى الرغم من ذلك أحسست يدا قوية تقبض صدرى وضيقا ينتشر فى أرجائى ويستبد بى .

وانصرم الليل وبعض ما دار بينى وبين إستر من حديث يرن فى أذنى فى لحظات أرق ، وبعض انقباضات الأسى تلم بى ، وجاء النهار ووافى ميعاد تلاقينا فخطر لى ألا أذهب فإنها لن تأتى ، ولكننى عزمت على الذهاب وعلى تمضية ليلتى هناك أرقب الغادين والغاديات وأشاهد قصص الحب التى تقع حوادثها على قارعة الطريق .

ووصلت إلى المقهى قبل الموعد المضروب بينى وبينها ، وكم كانت دهشتى لما لمحتها جالسة إلى نفس النضد الذى كنا نتحدث حوله .

ولمحتنى قادما فقامت تستقبلنى متهللة الأسارير ، وجلست وقد عزمت ألا أشير من قريب أو بعيد إلى ما رأيت بعينى رأسى فوق الجبل ، ولكن ما إن استقر بنا المقام حتى قالت فى هدوء :

— رأيتك أمس وأنت فوق الجبل .

— ذهبت لأشاهد منظرا عاما لروما فى الليل .

ولزمت الصمت ، فقالت :

— لا تريد أن تتحدث عما رأيته بالأمس ، تريد أن تطبق فمك حتى لا تجرح شعورى ، أشكر لك هذا ، ولكننى أحب أن تعرف ما حيرك من تناقض أقوالى وأفعالى . لابد أنك فكرت كثيرا فى ذلك .

ولم أنبس بكلمة ، فازدادت قربا منى وقالت :

— سأفضى إليك بسرى ، إننى لم أحدث به أحدا من قبل ، إنهم لن يستطيعوا أن يفهمونى ولكننى واثقة من أنك ستفهمنى . أنا لم يغرر بى أحد ، ولم أكن ضحية بيئة ، ولم يدفعنى إلى هذا السبيل حاجة إلى مال أو عطف أو حنان ، فأنا موسرة وأبى وأمى يعطفان علىّ كثيرا ، ولكننى اخترت هذا الطريق بمحض اختيارى وبعد تفكير وإمعان فى التفكير .

— هذا عجيب .

— قرأت فى بعض كتبنا الدينية القديمة أن المسيح المنتظر سيأتى ليخلص البشر من أنانيتهم وشرورهم وآثامهم ، وأنه سيتزوج من مومسة ، وأن هذه المومسة ستحيا معه بعد ذلك حياة طاهرة لتكون دليلا حيا على أن الخطايا تغفر وأن العاصى يستطيع أن يعود إلى حظيرة الإيمان وهو واثق من رحمة الله ، وأن يتعلم المجتمع كيف ينسى للتائب ذنبه ويفتح له صدره الحنون .

فقلت وأنا أرنو إليها وهى تتحدث فى إيمان :

— جميل .

— همس فى أغوارى هامس أننى زوجة المسيح المنتظر ولكن كيف أكون زوجته وأنا طاهرة ؟ ينبغى أن أكون بغيا ، وكان ذلك الخاطر رهيبا

لم تحتمله نفسى ، فجعلت أبتهل إلى الله أن يوطد عزمى وأن يهبنى القوة التى تعيننى على هذه التضحية ، وقد كان ، ووهبت نفسى لأول من قابلنى ، لم أفكر فيه ، كان رجلا أسود دميما ، ولكنه كان جميلا فى عينى لأنه سيقودنى إلى أول الطريق ، ومنذ ذلك الوقت صرت أهب نفسى لكل من يطلبنى .

— وإذا لم يظهر المسيح الذى ترقبينه فماذا ستفعلين ؟

وعاد البريق يأتلق فى عينيها وقالت فى إيمان :

— سأنتظره .. وسأنتظره حتى آخر نسمة فى حياتى .

— وإذا لم يظهر ؟

— أكون قد آمنت به قبل ظهوره ، وأستحق أن أكون فى الجنة معه .

— هذه .. هذه ..

فقالت فى انفعال :

— هذه تضحية كبيرة .. إننى أحس ذلك ، ولكن لابد للقديسات من تضحيات .

و لم أجد لسانى فآثرت الصمت ، وإذا بها تزداد قربا منى وتقول :

— ألم يهمس فى أغوارك هامس ذات ليلة بأنك المسيح المنتظر ؟

— لم يخطر ذلك على قلبى أبدا .

فقالت هامسة فى نبرات متقطعة كأنما توحى إلىّ شيئا :

— وبعد أن أفضيت إليك بسرى . ألم تراودك فكرة أنك قد تكون ذلك المنتظر ؟

ولم أشأ أن أجرح شعورها فقلت لها :

— إننى لم أتسام بعد إلى هذه المرتبة الرفيعة ، مرتبة أن أنكر ذا؛ وأتزوج من بغى مقدسة لأكون للبشر مثلا .

فقالت فى غضب وهى تنهض :

— حسبتك مميزا عن الآخرين ، ولكن خابت فراستى ، إنك مثلها وإن كنت قرأت كثيرا فى الكتب المقدسة .. هيا .. قم .. ماذا تنتظر

— إلى أين ؟

— إلى فيلا برجيزى .

روما فى الليل

ذهبت إلى الشاب الإيطالى الوسيم الواقف خلف مكتب الاستعلامات فى فندق ريالى ، وقلت له :

ــ أريد أن أرى الحياة الليلية فى روما .

فقال وهو يسرع بتقديم برنامج « روما فى الليل » :

ــ ما أروع روما فى الليل يا سيدى !

ثم أردف قائلا :

ــ عندما تكون فى روما افعل ما يفعله الرومانيون .

وابتسم فى اعتزاز وقال :

ــ هل سمعت ذلك من قبل يا سيدى ؟

و لم أشأ أن أخيب أمله فقلت له :

ــ لا ، ولكنه مثل حكيم .

ورحت أتصفح برنامج « روما فى الليل » ، وما بدأت أقرأ أول سطر فيه حتى ارتسمت ابتسامة على شفتى وتطلعت إلى الإيطالى الوسيم لحظة ، كان أول ما قرأت « عندما تكون فى روما افعل ما يفعله الرومانيون » ، الغالب أنك سمعت هذا المثل ، فهل تحب أن تفعل

مثلهم ؟ إذن دعنا نمر عليك الليلة فى فندقك بين الساعة التاسعة والتاسعة والنصف بسياراتنا الفاخرة .

وانتهيت من قراءة البرنامج ، ووجدت أن علىّ أن أدفع سبعة آلاف وخمسمائة ليرة إن أردت أن أنعم بزيارة الأماكن الليلية كلها الواردة فى البرنامج أو أن أدفع خمسة آلاف وخمسمائة ليرة إن اكتفيت بزيارة ثلاثة أماكن فقط .

وعدت إلى الشاب الإيطالى الوسيم وقلت له :

ــ ما الفرق بين الرحلة الأولى والرحلة الثانية ؟

وقال الشاب وهو يشمخ بأنفه :

ــ فى الرحلة الأولى ستعيش ليلة مع الأمريكان الأثرياء .

فقلت له وأنا ألوح بالبرنامج :

ــ إننى أريد أن أفعل فى روما ما يفعله الرومانيون ، لا ما يفعله الأمريكيون .

فقال وقد خفض من صوته :

ــ إن ما يفعله الأمريكيون فى روما لذيذ .

وحسبت أن هناك رحلتين منفصلتين ، فدفعت سبعة آلاف وخمسمائة ليرة وتناولت الإيصال .

وهممت بالانصراف ، وإذا بالشاب الإيطالى يهمس :

ــ إننا نعتبر الأمريكى طفلا فى الخامسة عشرة ، وفى يده مال ممدود .

وابتسم ولكننى لم أبتسم ، فقد فطنت فى تلك اللحظة إلى أننى طفل

فى الخامسة عشرة وفى يدى مال كثير .

ووقفت سيارة الرحلة أمام باب الفندق ، وكانت حمراء فاخرة كتب على جانبها بحروف من ألمونيوم بارز : « موندیال تور » ، وهبط منها الدليل الإيطالى ، وكان وسيما رشيقا أنيقا كنجوم السينما ، وانطلق إلى ردهة الفندق يستدعيني .

وصعدت إلى السيارة ، ودرت بعينى فيها دورة سريعة ، فإذا ببعض شيوخ الأمريكان وعجائزهن قد احتلوا بعض المقاعد الخلفية ، فجلست فى مقعد خلف مقعد الدليل .

ودارت السيارة على الفنادق ، وجموع من الشيوخ ومن فاتهن قطار الشباب تصعد إلى السيارة . ووصلنا إلى آخر فندق وقد كاد الأمل فى أن ننعم بوجه واحد جميل أن يلفظ آخر أنفاسه ، ولكن ما أن لاح القادمون حتى استشعرت راحة فقد كان بينهم فتاتان تمثلان الجمال الأمريكى الذى يبدو كرماد تحته نار ، وجهان صبوحان وقوامان رقيقان وإن تفاوتا فى الطول .

وصعدوا إلى السيارة وراحوا يحتلون الأماكن الخالية ، وتلفتت فتاة منهما تبحث عن مكان ، ولم تجد إلا المكان الخالى بجوارى فجلست فيه دون أن تلقى علّى نظرة .

وارتفع صوت الدليل :

ـــ ستشاهدون الأماكن الليلية التى يفضلها المجتمع الرومانى ، آثارنا المتأنقة ، مطاعمنا التى تتساب فيها الأنغام الإيطالية الدافئة ، وستشنفون

آذانكم بأغانينا التى ستذوقون فيها طعم النبيذ المنعش الذى اشتهرت به هذه البلاد .

وانسابت السيارة تمر مر الكرام على آثار روما ، والدليل يذكر فى اختصار اسم التاريخ أو الأثر الذى نشاهده .. فيا فيتوريو فينيتو .. فونتانا ناجاد .. بيازا فنيسبا .. تمثال الإمبراطور ماركوس .. قبر الجندى المجهول .

واختلطت الأسماء فى رأسى ، ولم أخرج من هذه الرحلة السريعة إلا ببعض مشاهد لنافورات وتماثيل غارقة فى الأضواء ، وكل ما عرفته أن فيا يعنى شارع وأن بياز يعنى ميدان .

ومرت السيارة بمسلة مصرية فالتفت إلى جارتى وقلت :

ـــ هذه المسلة ملكى .

واتسعت عيناها وهى تلتفت إلى ، ولكن انقشعت الدهشة وارتسمت على شفتيها بسمة خفيفة لما قلت :

ـــ إنها سلبت من بلادى ، وأنا وارث هذه الثروة المطالب بها .

فقالت وهى تلتفت إلىّ بكل جسمها :

ـــ وهل لو ردت إليك تأخذها ؟

ـــ لو قيل لى ذلك وأنا فى مصر لما ترددت لحظة فى أخذها .

ـــ والآن ؟

ـــ لن أتردد أبدا ، إننى سأرفض حملها معى لأنها هنا تذكر العالم بنا ، إنها سفيرنا فى متحف الفن هنا .

وانسابت السيارة وصوت الدليل يتردد فى جنباتها ، وشردت جارتى برهة ثم قالت :

— من مصر ؟

— من القاهرة على التحديد .

— وهل تبعد القاهرة عن الإسكندرية كثيرا ؟

— أقل من ثلاثمائة كيلو .

وصمتت قليلا ثم قالت :

— وهل تصل تماسيح النيل إليها ؟

وندت عنى ضحكة ساخرة . فقالت :

— لا تضحك ، قيل لى مرة إن الإسكندرية مدينة جميلة ، وأن تماسيح النيل لا تصل إليها ، وأن ليس بالنيل تماسيح وأن كل ذلك خرافة ، ولكننى لم أصدق ..

ثم قالت كأنما تحدث نفسها :

— كنت أريد ألا أصدق .

وساد الصمت برهة ، وطافت بها موجة من الأسى ، ثم التفتت إلىّ وفى عينيها الزرقاوين سحابة كدر وقالت :

— حدثنى عن الإسكندرية .

فقلت لها :

— إنها تشبه روما كثيرا فى مبانيها .. فى طرقاتها .. فى انحدارها وصعودها ، فى الأنوار المتألقة فى الليل .. فى السيارات الكثيرة المنسابة فى

طرقاتها .. إلا أن الإسكندرية تمتاز عنها بكورنيشها البديع الذى يمتد على البحر على طول المدينة .

فقالت وعلى شفتيها ابتسامة باهتة :

— كل امرئ يتغنى ببلاده ..

فقلت فى حماسة :

— الإسكندرية عروس البحر الأبيض .

فقالت فى صوت حالم :

— لقد قيل لى ذلك يوما .

وشردت واختلت بنفسها ، فاحترمت خلوتها وأطبقت شفتى .

ووقفت السيارة ، وارتفع صوت الدليل يقول فى لهجة تمثيلية كأنما يدعونا إلى وليمة :

— هيا أيها السادة نمضى بعض الوقت فى « هوستاريا ديللورسو » .

وغادرنا السيارة ، وانطلقنا إلى درج من الحديد هبطنا فيه إلى مكان أشبه بأماكن بيت المقدس ، المبانى قديمة والطريق مرصوف ببلاط من البازلت الأسود ، وقد وقفت على باب المكان الذى سنزوره فتاة تبيع الورود ، وخطر لى أننا سنزور كنيسة قديمة ، ولكن ما أن دلفت إلى المكان الذى كان أشبه بكهف ومست أذنى الموسيقى الإيطالية الدافئة حتى فطنت إلى أننا فى ناد ليلى .

واندفع رفاق من باب ضيق فى جانب الردهة المزينة بصور جميلة إلى القاعة التى صفت فيها المناضد والمقاعد ، ووضع عند مدخلها بار صغير

وقف أمامه مطرب إيطالى يشدو على الأنغام المنبعثة من الآلات ، وكان يلعب عليها رفاقة الثلاثة الذين أسندوا ظهورهم للحائط . كان غاية فى البساطة ، كل ما يزينه مرايا صغيرة مذهبة انتشرت فى المكان فى ذوق بديع ، وقد انبعثت الإضاءة من خلفها فأضفت على المكان شاعرية وجمالا .

ودارت أقداح الشمبانيا على الجميع ، وراح بعض الفتيات يتأودن على أنغام المطرب الشاب ، ويغمزن له بعيونهن وقد انفرجت أفواههن من النشوة .

وراح الدليل يمر على مرافقيه ويحييهم ، وقد كان نصيب جارتى من التحية والحفاوة أكبر نصيب ، ومال عليها وهمس فى أذنها ببعض كلمات ، فإذا بها تنهض وتسير أمامه وهى تفسح لنفسها طريقا بين الحشود المكدسة فى القاعة ، وهو فى أثرها يسند ظهرها بيده .

كنت واقفا عند مدخل القاعة أنظر من بعيد ، فلما مرا بى أحس الدليل أنه لم يحتفل بوجودى ، وكأنما شاء أن يعوضنى عما فاتنى فالتفت إلىّ وقال :

— تعال معنا .

لم أكن أدرى إلى إين هما ذاهبان ، وعلى الرغم من ذلك سرت معهما ، وصعدنا فى درج جانبى ، رأيت فى نهايته صورة جميلة لرجل وامرأة تحررا من ثيابهما وقد أمسك كل منهما بيد صاحبه ، فقلت مستفسرا :

ـــ آدم وحواء ؟

ولم يسمعني الدليل ، كان مشغولا عني بنسج شباكه حول جارتي الحسناء .

ووقفنا نتطلع إلى قاعة طعام كان كل ما فيها عاديا ، ولكن الإضاءة الماهرة والفوضى المنظمة والموسيقى الحنون تلقى على الجو ظلالا من الروعة تتدسس فى نشوة إلى أعماق النفوس .

ومال الدليل على جارتى وقال :

ـــ هذا مكان نجوم السينما الإيطاليين المفضل .

وقبل أن أشترك معهما فى الحديث كانا فى طريقهما إلى السلم مرة أخرى .

وعدنا إلى السيارة ، واحتل كل منا مكانه ، وعاد المذيع إلى شرحه السريع ، ولكنه كان بين الفينة والفنية يلتفت إلى جارتى ويفضى إليها بشرح خاص .

ورحنا نرقى فى الجبل ، ورأينا روما تسبح فى الأضواء ، كان منظرا رائعا أخاذا ! وعرجت السيارة إلى طريق خاص ، وإذا بنا أمام مبنى تشع منه الأضواء ، وتتردد بين جنباته الأنغام تردد الأنفاس العطرة على وجه الحبيب .

ودخلنا قاعة أرضها من الرخام الإيطالى المصقول ، وفى أعلى واجهتها أقفاص من البلور بها أفرع أشجار تنتقل على غصونها عصافير الكناريا بألوانها البديعة الزاهية . وقد وضعت فى أماكن بعيدة منضدتان حولهما فى شبه دائرتين كراسى وثيرة .

وجلست على مقعد فى إحدى الدائرتين ، وإذا بجارتى الحسناء والحسناء الأخرى تجلسان أمامى ، وإذا بسيدة عجوز ولكنها فى زينة ابنة العشرين تجلس عن يسارى ، وإذا بكهلين أمريكيين يجلسان عن يمينى .

ودارت أكواب الوسكى مرة ثانية وملئت الكأس الموضوعة أمامى فقدمتها إلى جارتى الحسناء فأخذتها شاكرة ، وصبتها فى كأسها الفارغة التى كانت قد عبت ما فيها فى جوفها .

وعزفت الموسيقى وارتفع صوت المغنى الإيطالى :

ـــ أوه .. أوه باللّلاذى .

وجاء الدليل وطلب جارتى الحسناء لترقص معه ، وأخذا طريقهما إلى حلبة الرقص ودنوت من العجوز المتصابية وقلت لها :

ـــ ألا يجرى فى عروقك دم فرنسى ؟

فضحكت مسرورة وقالت :

ـــ كل من يرانى يحسبنى فرنسية !

فقلت لها مداعبا :

ـــ ولكنك أجمل من الفرنسيات .

وكأنما أرادت أن تكافئنى على إطرائى ، فالتفتت إلى الفتاة الجالسة أمامى وقالت :

ـــ ما رأيك فى هذه الحسناء ؟

ـــ جميلة ، رائعة الجمال ، من يراها لا يخطئ أبدا أنها أمريكية .

ـــ ألا تقوم ترقص معها ؟

فقلت مداعبا :

ـــ إذا كان لى أن أختار فلن أراقص غيرك .

ونهضت فى خفة وقد أشرق وجهها وقالت :

ـــ كم أنت كيس !

ودفعت ثمن كياستى فجعلت ألف وأدور مع الحيزبون ، وعينى لا ترتفع عن وجه الحسناء الجالسة فى مقعدها شبه حالمة .

وعدنا إلى السيارة لنستأنف رحلتنا المكتظة بالمشاهد وإن كانت لا تروى ظمأ ، وقلت لجارتى الحسناء :

ـــ من نيويورك ؟

ـــ نعم .

ـــ فى رحلة ؟

ـــ فى رحلة طويلة .

ـــ ومتى ستعودين إلى نيويورك ؟

فقالت فى حدة :

ـــ لن أعود إليها ، لن أعود إليها أبدا .

واكتسى وجهها بالأسى ، والتمعت عيناها ببريق خاطف ، واستدارت لتقص علىّ قصتها ، ولكن الخمر لم تكن قد لعبت برأسها بعد ، فاستطاعت أن تكبح جماح الكلمات التى تود أن تفر من مستودع أسرارها ، وراحت تتطلع إلى المشاهد التى نمر بها وهى شاردة .

وانطلقنا إلى بلفدير ديللروزى ، وحشرنا فى مقاعد صفت إلى جوار

الأوركسترا حتى يخيل إلى أن أنفى يكاد يمس سطح الطبلة التى كان يدقها بمهارة إيطالى أسمر ، ودوت فى المكان موسيقى الغجر ، وظهرت فتاة ترتدى روبا فضفاضا ، وراحت تخلع ثيابها قطعة قطعة على أنغام الموسيقى الصاخبة ، خلعت الروب ثم القميص ثم الجورب ثم .. ثم حتى أصبحت عارية كما ولدتها أمها ، بل كانت ولا شك أروع من يوم ولادتها ، كانت كنماذج الرومان تنبض بالحيوية .

ودارت كئوس الوسكى ، وشرب الجميع وتقطع آخر قيد يشد الوقار إلى النفوس ، وتألقت العيون ببريق عجيب ، وقام الشيوخ والعجائز والشبان يرقصون رقصا عنيفا فأصبح المكان أشبه بحلقة زار .

وعادت جارتى الحسناء إلى جوارى بعد أن رقصت مع الدليل الإيطالى وقد بدأت ضحكات هستيرية تفلت منها ، لقد بدأت نشوة الخمر تتسرب إلى رأسها .

وأخذ الدليل يجمعنا ويقودنا إلى السيارة ، انطلق بنا إلى « جروتى دل بشيوتى » ، وأشار إلى أن أهبط من السيارة وطلب من جارتى الحسناء أن تتفضل وهبط معنا اثنان آخران ، وأمر السيارة أن تعود بالآخرين إلى فنادقهم ، وفى هذه اللحظة فقط فطنت إلى أن الرحلة قد انتهت لمن دفعوا خمسة آلاف وخمسمائة ليرة فقط ، أما نحن الأثرياء فلا زال فى عمر رحلتهم بقية .

كان التعب قد مشى فى أوصالى ولو خيرت لاخترت العودة إلى الفندق ، ولكننى وجدت نفسى أسير مع رفاقى ، وجلسنا إلى مائدة

واحدة ، وشربت جارتى كأسا من الوسكى فإذا بكل عواطفها المكبوتة تنطلق ، سارت وهى تتمايل وتضحك دون وعى وترقص مع الدليل الإيطالى وقد أسندت رأسها إلى صدره .

وعادت وهى تضحك ضحكات متتابعة ، وأمسكت الكأس فى يدها ، وفجأة ارتسم على وجهها آى الجد ، ومالت علّى وقد التصقت جبهتها بجبهتى وراحت تهمس :

ــ كثيرا ما يرتكب المرء حماقات ثم يندم عليها ، هل تفهمنى ؟

ــ نعم أفهمك ولا شك .

ــ لماذا أحس رغبة فى أن أقص عليك أمرى ، لماذا ألقى عليك عبء همومى وأنا لم أرك إلا من ساعات قليلة ولا أعرف حتى اسمك ؟ إننى أعرف أن ذلك أمر لا يهمك ومع ذلك أحس راحة فى أن أفضى إليك بما يضيق به صدرى ، هل يضايقك حديثى ؟

ــ أبدا ، بل يسرنى أن أصغى إليك .

ــ هل ارتكبت مرة فى حياتك حماقة ندمت عليها فيما بعد ؟

ــ إن حياتى سلسلة من الحماقات .

ــ إذن ستفهمنى .

ــ اطمئنى ، إننى إنسان .

وضعطت بجبهتها جبهتى ، ورنت إلّى بعينيها الزرقاوين المتأجج فيهما لهب نار ، وازداد همسها خفوتا ولكنه كان واضحا معبرا مؤثرا حتى إننى أحسست وقع مأساتها فى قلبى قبل أن تنطق بها ، قالت :



وعادت جارتى الحسناء إلى جوارى.
بعد أن رقصت مع الدليل الإيطالى

— لم يكن لى غيره ، كان الوحيد فى حياتى ، أحببته من كل قلبى ، وجاء ذات يوم إلى أبوى وأخبرهما أنه قرر أن يتخذنى شريكة حياته ؛ كان ذلك أبهج ما كنت أنتظره . ملأتنى النشوة حتى لم يعرف النوم طريقه إلى عينى تلك الليلة .

ومرت الأيام وجاء يطلب عقد القران ، لأنه قد تقرر تعيينه مديرا لشركته فى الشرق الأوسط ، وأخبرنى أننا سنعيش فى الإسكندرية .

انقبض صدرى ودون تفكير أخبرته أننى لن أذهب معه ، وراح يصف لى الإسكندرية ويزينها لى ولكننى لم أصغ إليه لأننى كنت خائفة من نفسى . أقولها لك صراحة كنت جبانة ، لم أكن قد انفصلت عن والدى أبدا ، فخيل إلىّ أنه سينتزعنى من دنياى ، لو أن الموت طرق باب غرفتى علىّ لما أفزعتنى كما أفزعتنى فكرة السفر .

كانت حماقة منى أن أرفض ، وكانت حماقة منى أن أصر على الرفض ، ولم يكن أمامه إلا أن يتزوج غيرى .

وضغطت على الكأس القابضة عليها فتهشمت وسال ما بقى فيها على ثيابها ، فأسرعت أمسح بمنديلى الخمر المنسكب فى حجرها ، وقامت منتصبة وقالت :

— آسفة .

ولكن سرعان ما جلست وعادت تلصق جبهتها فى جبهتى وتهمس فى صوت شحن أسى :

— وحمل زوجته وذهب ، وبعد أن غاب عنى أحسست أننى لا

أستطيع أن أعيش بدونه . أصبحت نيويورك بدونه مقفرة بغيضة فى عينى ، قررت أنا التى أفزعتها فكرة السفر مع من يحبها والتى لم تغادر أبويها من قبل أن أفر بعيدا ، أن أهيم على وجهى فى العالم الرحب لعلنى أنسى .

وصمتت قليلا ثم قالت :

ــ أحس رغبة فى البكاء .. أريد أن أبكى .

ومالت برأسها على صدرى ثم قالت :

ــ خذنى معك .. لا تتركنى لنفسى .. أكاد أموت كمدا .

وسادت فترة من الصمت ، ثم رفعت عينيها وقالت وهى تهز رأسها كأنها تطرد شبحا احتل ذهنها :

ــ لا .. لا .. لن أذهب معك .. ولن أذهب معه ، إنه يريدنى أن أذهب معه . يريد أن يستغل ضعفى ، أن ينتهز حاجتى الجياشة للحنان .

وصمتت قليلا ثم عادت تلتصق بى وتقول :

ــ ضمنى إليك .. ضمنى إليك بقوة حتى لا أحس أننى وحيدة، وأن أشعر أن إلى جوارى من يستطيع أن يفهمنى .

وجاء الدليل الإيطالى وطلب منا أن ننهض لننصرف ، فنهضنا وإذا به يتسلم الوديعة ويلف ذراعه حولها ويسير بها إلى السيارة وهو دائب الهمس فى أذنها .

وجلس فى مقعدى وحيدا ، وانطلقت السيارة إلى فندق ونهضت لأهبط ، وإذا بها تنادينى وتصافحنى وتشد على يدى .

ووقفت على الطوار أنظر وهى تنظر إلىّ من خلف الزجاج ، وتلوح لى بيدها مودعة ، وجذبها الدليل إلى صدره وجثم عليها كما يجثم الذئب على شاة ، وانطلقت السيارة بهما ليسطرا نهاية قصة .

روما: ١١ / ١٠ / ١٩٥٨

حدث في روما

كان يسير فى شارع فيتوريـا عمانويـل يتفـوس فى الرائـحين والرائحات ، ويقف أمام واجهات المحال لحظات طويلة ، حتى إذا ما سئم التجوال جلس إلى نضد فى مقهى بيزا بيرونى يتطلع إلى بيازا ديللا ربيبليكا ، وإلى النافورة الرائعة التى تتوسط الميدان ، وإلى الـعشاق الجالسين حول سور النافورة يتحدثون قليلا ويتعانقون طويلا ، وأصابع الأيدى تتشابك أو تتلمس الخدود أو الأعناق أو الشفاه .

وما كان يبتعد عن فندق الكورينالى إذا كان وحده ، فقد سار مرة فى طرقات كثيرة ولم يستطع العودة إلى فندقه على الرغم من خريطة روما التى قلما كانت تغادر جيبه ، واضطر أن يركب تكسيا ، وكم كانت دهشته عندما وجد أنه كان على بعد بضعة أمتار من فندقه .

وخطر له أن يشترى قميصا ، فدخل محلا فى قبالة الفندق الكبير كان منيرا ولكنه أنيق ، وكان كل من يعملون به امرأة عجوز ورجل وخط الشيب شعر رأسه وفتاة إيطالية سوداء الشعر دقيقة الخصر ممتلئة الصدر والأرداف ، تمتاز بروح سرعان ما تجذب الناظر إليها .

وتحدث بالإنجليزية ، وأجابته الفتاة إلى طلبه وهى تحدثه بلغة إنجليزية

سليمة ، فقال فى فرح :

— لكم يسعد المرء عندما يسمع لغة يفهمها ، إن وقع حديثك فى أذنى أعذب من أروع قطعة موسيقية ، إننى مشتاق إلى الإنصات إليك ، إننى بطبعى لا أميل إلى كثرة الأخذ والعطاء فى الشراء ، ولكن الظاهر أنى سأتخلى عن هذه العادة اليوم ، وسأساوم وألح فى المساومة ، ولكننى سأدفع أخيرا ما تطلبينه . اتفقنا ؟

فقالت وهى تبتسم :

— اتفقنا .

وتفرست فى وجهه طويلا ثم قالت :

— أمريكى ؟

— نعم . من نيوجرسى .

وراح يقلب القمصان ويختار منها ما يشاء وهو دائم الحديث ، ثم توقف قليلا ورفع رأسه ونظر إليها وقال :

— هل أنت مرتبطة بموعد غدا ؟

فقالت فى هدوء :

— لماذا ؟

— إن لم تكونى مرتبطة بموعد ، فأننى أدعوك لنخرج معا .

— لماذا ؟

— لتكونى دليلى .

— فى روما من يحترفون هذه المهنة .

ـــ أولا إننى لا أحب المحترفين ، وثانيا أحب أن أصغى إليك وأنت تتحدثين إلىّ بلغة أفهمها ، إننى أستشعر الوحدة فى روما على الرغم من ملايين الناس الذين فيها .

فقالت له وهى تبتسم :

ـــ إن كنت مشتاقا إلى سماع لغة بلادك فاذهب إلى قهوة دونى فهى ملتقى السياح الأمريكان .

فقال وهو يلوح بيده فى ضيق :

ـــ الأمريكان ! وهل غادرت أمريكا لأقابل الأمريكان فى روما ، إننى أريد أن أتحدث إلى الإيطاليين ، أن أتذوق طعما جديدا للحياة .

فقالت وهى تبتسم :

ـــ قل إنك تريد أن تتحدث إلى الإيطاليات على التحديد .

ـــ إلى الإيطاليات الحسناوات على وجه الخصوص .

وضحك وضحكت ، وقال لها وهى تكتب كشف الحساب .

ـــ غدا الأحد ، وإنه جميل أن نمضى اليوم معا كما يمضيه الإيطاليون ، سأنتظرك فى قاعة الانتظار فى فندق الكورينالى فى الحادية عشرة .

ـــ ولماذا فى الفندق ؟

ـــ لأنه المكان الوحيد الذى أعرفه فى روما .

ـــ غدا سأمر عليك .

ـــ سأنتظرك فى الحادية عشرة ، شكرا .

وغادر المكان وهو يحس نشوة .

وفى الحادية عشرة كان جالسا فى مقعد وثير فى قاعة الفندق فى مواجهة

الباب ، وكان يتفرس فى اهتمام فى القادمات ويكاد يقف على قدميه كلما دار الباب دورة ولفظ شابة جميلة ، وقبل أن يتحرك عقرب الدقائق ليقطع شوطه الثانى عشر فى هذا الصباح لمحها قادمة ترتدى ثوبا أحمر مخططا بمربعات سوداء كبيرة ، وحول وسطها حزام أسود عريض فصل الصدر الناهد عن الخصر النحيل وحدد بداية تكوير الظهر البديع ، وكان الثوب قصيرا فبدت سيقانها كأنما خرطت من مرمر .

وخف إليها يستقبلها فى سرور ويمد لها يديه ويتناول كفيها فى كفيه ، كأنها كانت صديقة قديمة عزيزة رآها أمامه فجأة ، وسار بها حتى أجلسها فى مقعد إلى جوار المقعد الذى كان يحتله .

قال وهو يبتسم :

— دليلى اليوم فى روما أجمل دليل .

فقالت وقد رفت على شفتيها بسمة وتألقت عيناها ببريق الفرح :

— لا تبالغ .

فمال نحوها وقال :

— بل أقول حقا .. ماذا تشربين ؟ .. وسكى ؟

فهزت رأسها أن نعم ، وجعلت تقلب عينيها فى المكان وفى الأباجورة الكبيرة التى كانت من مادة أشبه بالعاج تظللها مظلة من قماش أخضر ، وعبرت بنظرها الردهة المرتفعة الطويلة التى صفت فيها موائد الطعام والتى كانت تطل على حديقة صغيرة ، ولكنها منسقة تنسيقا بديعا ، وقالت هامسة :

ـــ كورينالى !

ثم التفتت إليه وقالت :

ـــ هل تعرف معنى « كورينالى » ؟

ـــ لا .

ـــ إنها مقر الملك .

وجاء الساقى ووضع كأسين ملأهما بالويسكى ثم انصرف ، وشربا كأسيهما وقال :

ـــ أريد أن أمضى اليوم كما يمضيه الإيطاليون ، أجلس على مقهى وأتناول غذاء إيطاليا ، وأطوف ببعض آثار روما ، وأشنف أذنى بموسيقاكم الدافئة ، وأتعشى حيث يتناول نجوم السينما عشاءهم .

وقام ناهضا وقال :

ـــ هيا يا دليلى الجميل .

وانطلقا يتحدثان حتى إذا ما وصلا إلى ميدان بربارينى جلسا على مقهى صغير يطل على الميدان ، وراح يتبع الفتيات الغاديات الرائحات بنظره ، ثم قال وهو يضحك :

ـــ كأنى أتابع مباراة فى التنس .

ورفع كأسه يشربها وهو يقول :

ـــ ما ألذ الجلوس على المقهى !

ـــ ألا توجد عندكم مقاه ؟

ـــ مقاه ؟ ومن أين لنا الوقت الذى نمضيه فيها ؟ إننا نعمل من الصباح

حتى الخامسة مساء وكأن سياطا تلهب ظهورنا ، ثم نعود إلى دورنا نتأهب لتناول العشاء وقلما يتأخر عن السابعة مساء .

— ولماذا كل هذا التعب ؟

— لنجمع دولارات .. لنصبح أغنياء .

فقالت له وهى تبتسم :

— ثم ماذا ؟

— نتمتع .. نعيش .. ننفق ما جمعنا هنا وهناك .

وهل أنت غنى ؟

فقال وهو يبتسم :

— لم أصر مليونيرا بعد .

ولمح فتى يلف ذراعه حول عنق فتاة وقد ثنت ذراعها وقبضت بأصابعها على أصابعه وراحت تعبث فيها بحنان ، فقال :

— إننا نلف أذرعنا حول خصور فتياتنا ، ولكن هنا تلف الأذرع حول الأعناق ، لماذا ؟

فقالت وهى تضحك :

— لسببين : الأول أن لف الذراع حول الخصر يفسد الثوب ، والثانى أن لف الذراع حول العنق أمتع .

— إننى مقتنع بالسبب الأول ، أما السبب الثانى فلن أقتنع به قبل أن أجرب .

وأشرق وجهه بابتسامة وشع من عينيها بريق أخاذ ، ونهض ونهضت

ثم نظر فى ساعته وقال :

ـــ لا يزال أمامنا وقت نشاهد فيه بعض الآثار .. هيا يا دليلى الجميل .

فالتفتت إليه وقالت :

ـــ تجيد قيادة السيارات ؟

ـــ نعم .

ـــ أرى أن تؤجر سيارة ، هذا أوفر وألذ .

ـــ ولكننى لا أعرف طرقات روما .

ـــ لو كنت تعرفها لما كنت فى حاجة إلىّ .

ـــ إننى أحس الساعة ونحن نتحدث أننى إنسان ، من الصعب أن يعيش الإنسان وحده .

انطلقا يتحدثان ، قال :

ـــ متزوجة ؟

ـــ كنت متزوجة وانفصلت عن زوجى .

ـــ مطلقة إذن .

ـــ لا . ليس الطلاق ميسورا فى روما ، إذا غضب الزوج من زوجته انفصلا وعاش كل منهما حياته الخاصة .

وصمتت ثم قالت :

ـــ وأنت ؟

ولم ينبس بكلمة ، وغاض إشراق وجهه وانتشرت فيه سحابة من

الكدر ، وضاق صدره حتى راح يزفر فى صوت مسموع ، وحزرت أن فؤاده جريح فلم تشأ أن تنكأ جروح نفسه ، ورأت أن تغير الحديث فقالت وهى تلتصق به :

ـــ هل رأيت فونتانا دى تريفى ؟ وهل رأيت تمثال أنهار العالم لبرنينى ؟

ـــ ليس بعد .

ـــ سترى معى اليوم ما لا تراه مع دليل آخر فى شهر .

فقال وهو يضحك :

ـــ إذن سأرفع أجرك وأجزل فى العطاء .

وأجرا سيارة وانطلق بها ، فقالت :

ـــ إلى فياليونيدا بتشولاتى .

ـــ إننى لا أعرف شوارعكم ولا ميادينكم ، قولى : يمينا .. يسارا .. قف .

والتصقت به حتى كانت أنفاسها تتردد على خده ، ولفت ذراعها حول عنقه ، وراحت تعبث فى أذنه ، وجعلت تقوده وتذكر له اسماء الشوارع والميادين التى يمران فيها .

ـــ بيازا فنيسيا .. فيا دل كورسوا ..

وقادته إلى طرقات ضيقة مبلطة بمربعات من البازلت الأسود ، ثم قالت له :

ـــ قف .

وهبطا وسارا قليلا فوجدا أنفسهما فى ميدان فى صدره مبنى رومانى مجوف فى وسطه ، وقام فى التجويف تمثال لنبتون إله البحر وعن يمينه ويساره فى وجه المبنى خمسة أعمدة رومانية ضخمة ، وأمام نبتون تماثيل لخيول وحوريات ينفثن الماء فى روعة ، وحول النافورة كلها سور من الحديد فى نصف دائرة .

ووقف يتطلع إلى النافورة وهو نشوان يقلب بصره فى المكان ، وقالت له :

ــ فونتانا دى تريفى . إنها نافورة السعادة ، كل من يلقى فيها بقطعة من العملة يعود إلى روما ثانية .

وأخرج من جيبه قطعة من ذات المائة ليرة وهم بأن يقذف بها فى الماء ..فصاحت فيه :

ــ لا .. لا .. انتظر .. ليس هكذا .. أعط ظهرك للنافورة وألق بالعملة من وراء ظهرك .

وأعطى ظهره للنافورة ، وقبل أن يلقى بالعملة قالت وهى تضحك :

ــ الآن فقط صدقت أنك غنى .

ــ لماذا ؟

ــ لأنك تلقى فى الماء قطعة من ذات المائة ليرة ، إن ما يلقى به عادة قطعة من ذات العشرين .

وألقى القطعة من وراء ظهره وقال :

ــ إننى ألقى بها كلها لأننى أريد أن أعود إلى روما خمس مرات .

فقالت وهى تضحك :

ـــ هيا نعود إلى السيارة .

وانسابا فى طرقات ضيقة وهى تقول له :

ـــ يمينا .. يسارا .

ونظر إليها من طرف عينه وقال :

ـــ لو تركتنى هنا لما عرفت كيف أعود إلى فندقى .

ـــ إذن حاذر أن تفعل ما يغضبنى .

ولف ذراعه حول عنقها وجعل يعبث فى عنقها وهو يهمس :

ـــ لعل ذلك يرضيك .

ووقف فى ميدان بياشا ، واقترب من المسلة القائمة فى وسط الميدان فإذا جلوس حول قاعدتها أربعة رجال أقوياء ، كانت عضلات أذرعهم بارزة فى دقة رائعة ، وعضلات بطونهم تدل على الاسترخاء ، أما أقدامهم فقد كانت نابضة بالحياة . كانت تماثيل الرجال آية فى الروعة والجلال ، وتركته يملأ عينيه من النافورة الرائعة ثم قالت :

ـــ هذا التمثال يمثل أشهر أنهار العالم .

ـــ وما هذا الذى يخفى وجهه ؟

ـــ إنه النيل ، وقد رمز بابينى بإخفاء الرأس إلى أن منابعه لم تعرف بعد ، فإن منابع النيل لم تكن قد اكتشفت عندما صنع بابينى هذا التمثال .

ودارا حول التمثال دورة وقالت :

ـــ لو كان بابينى يعرف أنكم قادمون إلينا لضم المسسبى إلى هذه

الأنهار .

ونظر إلى ساعته وقال :

ـــ هيا نتناول غداءنا .. أريد غذاء إيطاليا .

وراحت تقوده فى شوارع وطرقات مختلفة ، ثم طلبت منه أن يقف عند طريق ضيق ، وسارت إلى باب قديم له عقد مقوس ، فوجد نفسه فى فناء لا هو بالفسيح ولا هو بالضيق ، يشقه طريق صفت على جوانبه خلف سور منخفض من الحديد مناضد حولها مقاعد ، ووجد فى نهاية الفناء بابا آخر كتب عليه « أوتيللو » يقود إلى قاعة مربعة انتشرت فيها مناضد حولها مقاعد من الحديد والخيزران .

واحتلا منضدة على اليسار ، وكان بالقرب منهما منضدة التف حولها أربعة رجال وامرأتان وعاد ينظر إلى اللافتة التى كتب عليها « أوتيللو » ثم قال :

ـــ غريب أن يطلق على مطعم اسم « عطيل » .

وما كاد ينتهى من تعليقه حتى راح ذهنه يعمل ، إن عطيل قتل ديدمونة لمجرد أنه شك فيها ، أما هو ..

وزحفت الأفكار السود إلى رأسه ، وهمت صور مأساة حياته أن تطفو على سطح ذهنه وانبثقت ينابيع المرارة فى أغوازه تمده بالأسى والحقد والأشجان ، وشرد بذهنه ، ولكنها لم تتركه لنفسه فقد استدعت موسيقيين كانا يدوران حول المناضد وهما يعزفان وطلبت منهما أن يغنيا أغنية الكلب ، فراح أحدهما يغنى والآخر ينبح كجرو صغير فى نهاية كل

مقطع ، وضحكت ومالت عليه ، وانتبه على نباح الرجل فأخذ يضحك .

وجاء الجرسون ووضع أمامهما ما طلبت ، فقالت وهى تتناول الشوكة والسكين :

ـــ خروف بالفرن ، هذا طبق الإيطاليين المفضل .

وراح الجالسون على النضد القريب يقصون النوادر ويضحكون بصوتٍ عال ، وكانت هى تترجم له ما تسمع ، وألقى أحدهم نكتة جعلت المرأتين تضحكان ضحكا متواصلا تردد صداه فى المكان جميعه حتى إن الأنظار كلها اتجهت إليهما .

وتأهب ليسمع ترجمة النكتة ولكنها أطبقت فمها وضاق بصمتها فقال :

ـــ ماذا قال ؟

ـــ لا أستطيع أن أقول .

ـــ لماذا ؟

ـــ لأنها نكتة مكشوفة .

ـــ أتسمعها ثلاث نسوة ولا أسمعها أنا ؟

ـــ إننى لا أستطيع أن أقصها .

ـــ اهمسى بها فى أذنى .

وألقمها أذنه فراحت تهمس فيها وأساريره تنفرج وبريق غريب يأتلق فى عينيه ، ثم دوت ضحكته مجلجلة فى المكان حتى إن الأنظار كلها اتجهت نحوه .

وراحا يدوران بالسياره فى أرجاء روما يطوفان بآثارها ، حتى إذا ما خيم الليل قادته إلى فيلا جلوريا ، وهى حديقة هادئة خلف كنيسة يخيم عليها ظلام لا يزحزحه نور متلصص ، ولا يعكر صفو العشاق هناك عزول .

ولف ذراعه حول عنقها ، وانسابا فى الظلام وهو يعبث فى شفتها ويحاول أن يحاكى الشبان المنتشرين فى كل مكان من الحديقة ، الذين كانوا يمارسون الحب بقدم راسخة .

وهمس فى أذنها :

ـــ أرى أن نرجع إلى كورنيالى .

فقالت وهى تضحك :

ـــ وماذا أفعل فى مقر الملك ؟

ـــ تصبحين الملكة لليلة .

وعادا إلى السيارة وانطلقا إلى الفندق ، وقادها إلى غرفته ، كانت غرفة رائعة قلما وقعت عيناها على مثلها .

ولما انتهيا من العشاء ارتمت فى الفراش وراحت تغنى فى صوت حالم :

ـــ نيبى تيبو مارشال .

وراح يمرر يده على شعرها فى حنان ، ثم مال عليها وضمها إلى صدره فى قوة .

وأخذت تخلع ثيابها قطعة قطعة ، حتى إذا أصبحت عارية أخفى عينيه بيديه وراح يصيح :

ـــ اذهبى .. اذهبى أرجوك .

فقالت فى دهش :

ـــ ماذا ؟ هل أسأت إليك ؟

فقال وهو يترك الغرفة لا يلوى على شيء .

ـــ اذهبى .. اذهبى .. اذهبى ..

وارتمى على أول مقعد فى الردهة مبهور النفس وقد حمل رأسه بكفيه ، وراحت مأساة حياته تمر فى ذهنه فى تتابع سريع ، وعنف يكاد يفجر جوانحه .

رأى نفسه فى نيوجرسى تاجرا ناجحا مبجلا ، يحترم الجميع ويحبه الجميع ، وكانت زوجته شابة جميلة لم يدخر وسعا فى إرضائها ، وانتشرت تجارته فكان عليه أن يسافر وأن يغيب عن بيته ليسهر على أعماله ، وما كان يعود إلى زوجه إلا وهو محمل بالهدايا ، وكان يبذل كل ما فى طاقته أن يعوضها عن الحرمان الذى كانت تقاسيه فى أيام غربته .

وفى ذات ليلة عاد إلى بيته قبل موعده . ورأى النور فى غرفة نومه ، فراح يصعد فى الدرج قفزا ليفاجئ زوجته بعودته .

ووضع المفتاح فى الباب فى حرص ، ودخل على أطراف أصابعه ، وفتح باب غرفة النوم ، وإذا به يجمد فى مكانه لا يستطيع حراكا ، فقد رأى زوجته عارية فى أحضان رجل .

وثارت الدماء فى عروقه ، ومادت الأرض به ، وخطر له أن يقتلها ، ولكن قبل أن ينقض عليها دار على عقبيه وترك المكان وخرج .

لم يستطع أن يمكث فى نيوجرسى ، وحمل حقائبه ، وانطلق إلى العالم يجوب أرجاءه ، ولكن مأساة حياته كانت تتبعه كاللعنة ، لقد ضربت سياجا من الفولاذ بينه وبين النساء جميعا . يا طالما أغلق الباب عليه وعلى امرأة جميلة ، ولكن ما إن يراها عارية حتى تقفز إلى رأسه صور الخيانة البشعة ، وتلهب روحه بسياطها ، فينهار وهو يخور ويتلوى من الألم .

وقامت منكسة الرأس ، وسارت إلى الباب وهى تجر رجليها ، وتحس طعم الإهانة فى فمها ، ولكنها قبل أن تصل إلى الباب أسرع إليها ، وجذبها من يدها فى رفق ، وضمها إلى صدره فى حنان ، وراح يحاول تحطيم ذلك السياج الفولاذى الذى طوقته به الفاجعة .

الأميرة ناتاشا

حزمت حقائبى وبعثت بها إلى مكتب الطيران استعدادا للسفر إلى أكرا فى الليل ، ورحت أمضى آخر نهار لى فى روما أجوس خلال « الكاستيلو » تلك القلعة القديمة التى تضم فى جوفها أرهب السجون وأحصن الكهوف ، والتى تشمخ حتى تطل على روما كلها تتحكم فى مسالكها ، وقد صعدت مئات الدرجات حتى بلغت سطحها ، وجعلت أقلب نظرى فى نهر التيفرى ، وقبر الجندى المجهول ، وميدان سان بترو فى مدينة الفاتيكان المحصنة ، وخلال الكلسيوم الضخم الهائل ، وخلال الجموع المحتشدة فى ميدان سان بترو لتوديع البابا الراحل ، وإلقاء نظرة أخيرة على جثمانه قبل أن يوسد مثواه الأخير .

وانقضى النهار وقد بلغ منى التعب غايته ، وانطلقت إلى مكتب الطيران وأنا أمنى النفس بالاستلقاء فى مقعد الطائرة ، وإسلام نفسى للنوم اللذيذ ، ولكن ما إن بلغت المكتب حتى تبخر الأمل الحلو ، فقد قيل لنا إن الطائرة ستتأخر تسع ساعات ، وأن علينا أن نعود إلى فندق « ريزيدنت » نمضى فيه ليلتنا .

واتجهنا إلى السيارة التى تنتظرنا وأنا أجر رجلى جرا ، وجلست فى مقعد بالقرب من الباب ، وإذا برائحة عبقة عطرة تملأ أنفى ، ففتحت عينى المطبقتين من التعب ونظرت ، فإذا بفتاة أنيقة غاية الأناقة ، مرفوعة الرأس ، فى عينيها ثقة واعتزاز تتقدم ثابتة الخطو وتجلس فى مقعد خلف مقعدى .

وهممت أكثر من مرة أن ألوى عنقى وأن أملأ عينى بذلك الجمال الصارخ الطاغى المتكبر ، ولكننى كنت أكبح جماح نفسى فى جهد ، وأتشاغل بمراقبة عيون الآخرين الموجهة إليها من كل جانب كأنوار كاشفة سلطت على طائرة متسللة فى جنح الظلام .

وانسابت السيارة تخترق قلب روما الخفاق ، ثم انطلقت فى شوارع جانبية كثيرة ، وانقضى وقت كثير قبل أن نصل إلى الفندق ، وإذا بصوت الفتاة الجميلة يسرى كالسحر فى السيارة .

— لكأننا ذاهبون بهذه السيارة إلى أكرا .

وابتسمنا جميعا و لم ينبس أحدنا بكلمة ، ووقفت السيارة أمـام الفندق ، وفتح الباب و لم أجرؤ على النزول بل وقفت أنتظر حتى مرت بى وهبطت ، ثم هبطت خلفها .

واتجهنا إلى المكتب القائم على يسار الداخل ، وراح كل منا يذكر اسمه فى صوت خافت ويقدم جواز سفره ، وقالت فى صوت عال ليسمعه الجميع :

— برنسس ناتاشا .

وانتهى الرجل الواقف خلف المكتب من تسليمنا مفاتيح غرفنا وقال :

ـــ يبدأ العشاء من الثامنة يا سادة .

وإذا بها تقول فى بساطة :

ـــ أشكر لك ، ولكننى ذاهبة إلى بيازا أوجوسو إمبراطورى ، إلى ألفريدو ملك البوتتشينى .

واتجهت مرفوعة الرأس ثابتة الخطو نحو الباب وهى تنادى :

ـــ تاكسى .. تاكسى .

واتجهنا إلى السلم الهابط الذى قادنا إلى ممر طويل ينتهى بالصعد الذى حملنا إلى غرفنا .

واستلقيت فى الفراش بملابسى و لم أنتبه إلا على رنين التليفون وصوت يقول لى :

ـــ آن أوان الرحيل ، ينبغى أن تكون فى ردهة الفندق بعد نصف ساهة يا سيدى .

ونظرت فى ساعتى فإذا بها الخامسة صباحا .

وهبطت إلى الردهة فألفيت برنسس ناتاشا قائمة فى وسطها وقد ارتدت ثوبا آخر غير ذلك الذى كانت ترتديه بالأمس ، كان بسيطا ولكنه كان أنيقا ، و لم أدر من أين جاءت به ، و لم يكن معنا إلا الحقائب الصغيرة التى نحملها فى أيدينا !

واقتربت منها وقلت فى صوت خافت لا يخلو من اضطراب :

ـــ صباح الخير أيتها الأميرة .

وردت تحيتى بأحسن منها ، ومنحتنى من فمها الجميل بسمة .

وحملنا إلى المطار ، ووقفنا فى الجمرك جميعا أمام حقائبنا ، ولكنها سارت إلى مكان الانتظار والكل يحنون لها رءوسهم تحية ، ويتسابقون إلى خدمتها ، وقبل أن تحمل حقيبة من حقائبنا كانت حقائبها قد انتقلت إلى الطائرة فى حرص وعناية .

وآن أوان الرحيل ، وسارت على رأسنا إلى الطائرة كأنما كانت تقودنا ، وقادتها المضيفة إلى مقعدها وقادتنى إلى مقعدى ، فإذا بى أجلس أنا والأميرة جنبا إلى جنب .

ووضعت حقيبتى على الرف ، وقبل أن أحتل مقعدى رفعت عينيها إلىّ وقالت :

— أنت سعيد أيها الشاب .

وابتسمت وأنا أجلس دون أن تتحرك شفتاى بكلمة ، وقالت فى ثقة :

— لأنك ستمكث إلى جوارى اثنتى عشرة ساعة .

فقلت فى دهش :

— اثنتا عشرة ساعة .

فقالت وقد رفعت حاجبا واغمضت عينا نصف إغماضة :

— هل يضايقك أن تكون معى اثنتى عشرة ساعة ؟

— بل يسعدنى أن أكون من رعاياك دواما ، ولكننى ما كنت أظن أننا سنقطع المسافة فى اثنتى عشرة ساعة .

— وهل ركبت الطيارة دون أن تدرى كم ساعة ستقضى فيها ؟

— قلما تهمنى التفاصيل ، كل ما يهمنى أن أركب من روما وأن أهبط فى أكرا .

فالتفتت إلىّ بصدرها وقالت :

— اسمع يا عزيزى ، العمل الرائع لا يكون رائعا إلا بدقة تفاصيله .

فقلت وأنا أجول بعينى فى وجهها :

— أظن أن ذلك فى الفن .

— وينبغى عليك أن تتذوق الرحلات تذوقا فنيا ، فالسفر فن ، والتحدث إلى الناس فن ، والتعرف بهم فن ، وممارسة الحياة فن .

وربطنا أحزمتنا حولنا وارتفع ضجيج الطائرة وهى تترك الأرض فلزمنا الصمت ، حتى إذا ما حلقت فى السماء عدنا إلى أحاديثنا ، قالت :

— نبدأ بتعريف أحدنا بالآخر ، أنا برنسس ناتاشا ، روسية ، ولكننى عالمية الجنسية .

فقلت مقاطعا :

— ولكن ليس هناك أمراء بين الروس .

— إننى من الروس البيض الذين فروا من الشيوعية .

— ولكنك أصغر من أن تكونى ممن شاهدوا العهد .

— إننى ابنة أمير روسى فر بنفسه من الثورة ، وقد ولدت فى سويسرا بعد ذلك بسنوات .

ـــ هذا جائز .

فقالت فى حدة خفيفة :

ـــ بل هذا صحيح . وأنت ؟

ـــ أنا مصرى .

وأشرق وجهها وقالت :

ـــ أنت عربى ؟ هذا جميل .. هذا جميل .. إننى أتعلم العربية ، وفى حقائبى كتب عربية كثيرة .. سنتحدث عن ذلك فيما بعد .. أكمل .

ـــ وأنا موظف بسيط فى شركة مصرية بعثتنى أبحث فى غانا عن أسواق لسلعها .. إننى لست ابن أمير ولا ابن باشا ولست من الطبقة الأرستقراطية .. إننى ابن فلاح يعمل فى حقله من مطلع الشمس حتى غروبها .

ورمقتنى طويلا وقد رفت على شفتيها بسمة ساخرة ، ثم قالت :

ـــ إننى لم أصدق كلمة مما قلت .

ـــ لماذا ؟

ـــ لأنك لو كنت موظفا صغيرا لما بعثتك شركتك لتبحث عن أسواق لها فى بلاد نائية ، ولما منحتك تذكرة سفر فى الدرجة الأولى .

ـــ ولكن هذا هو الواقع .

ـــ إنك لا تعرف الحياة يا صديقى ، وحتى إذا كان هذا هو الواقع فلا تذكره . أتظن أنك بتواضعك هذا ستفتح الأبواب المغلقة .. أقول لك الحق ولا تغضب : لو كنت مدير شركتك لما وافقت على إرسالك إلى هنا

أو إلى أى مكان آخر من العالم قبل أن تتلقن فن الحياة . لم يعد هناك مكان للتواضع على الأرض ، إذا أردت أن تنجح فاطرق الأبواب فى قوة تفتح لك ، قل إنك مالك الشركة أو صاحب أكبر رأس مال فيها ، وتحدث عن قصورك وسياراتك ومصايفك ومشاتيك ورحلاتك ، وعن الصفقات الكثيرة الناجحة التى عقدتها مع الدول الأخرى ، فسيصغون إليك .. سيعيرونك سمعهم .. سيحنون لك الرءوس ويفسحون لك الطريق وإن حسدوك فى أعماق قلوبهم .

إننى أميرة ، ولكن هذا وحده لا يكفى ، لابد من موهبة أخرى أعتمد عليها ، لذلك مارست كتابة القصص ، إن هذا ييسر لى أن أدس أنفى فى كل شىء ، وأن أمارس تجاربى فى حرية .

فقلت وأنا أمد عينى إلى صدرها الشامخ :

ـــ إن جمالك وحده يكفى ، إنه جواز المرور فى كل مكان .

ـــ قلت لك يا صديقى إنك فى حاجة إلى أن تلقن الحياة ، هذا الجمال سيذبل يوما ، فعلىّ أن أتسلح بسلاح آخر ، ولا أحسب أن هناك سلاحا بعد الجمال أمضى من الشهرة ، لذلك أكتب القصص الآن وأجوب العالم وأنا جميلة ، ليعتاد الناس على أن أكون فوق رءوسهم دواما .

وصمتت قليلا ، وكأنما خشيت أن ينقطع حبل الحديث بيننا فقلت لها :

ـــ أين كتبك العربية ؟

ـــ فى حقيبتى .

وقامت تحضر حقيبتها الموضوعة فوق الرف فانحسر ثوبها عن ساقين جميلتين ، والتصق بأردافها ودار معها حيث تدور ، فبدت مفاتنها تكاد تصرخ إغراء ، وعادت إلى مقعدها ووضعت حقيبتها على الأرض ، وأخرجت منها كتابا دفعت به إلى ، فتناولته وقرأت : « اللغة العربية وقواعدها » ، تأليف « الدكتور يوحانان كابليفاتسكى » طبعة « روبين ماس » (القدس ١٩٤٠) .

وقلبت صفحات الكتاب ، ثم أعدته إليها وأنا أقول :

ـــ يبهجنى أن أسمعك وأنت تقرئين العربية .

وفتحت الكتاب وراحت تقرأ فى ثقة :

ـــ الهرتان والقرد ..

وانطلقت تقرأ وأنا أصوب لها نطقها ، وقرأت فيما قرأت :

ـــ وفأل ..

وقلت مصوبا نطقها :

ـــ وفعل ..

وأمسكت بورقة وراحت تكتب : « د، ض ، ق . ك ، ت . ط ، ذ . ظ » ثم قالت :

ـــ إننى لا أستطيع أن أفرق النطق بين كل حرفين من هذه الحروف .

وجعلت أنطلق لها كل حرف وأطلب منها أن ترده خلفى ، وكان نطقها غريبا فضحكت على الرغم منى ، وشاركتنى فى ضحكى حتى مال رأسها ومس صدرى .

وتناولت الورقة وكتبت :

— He said : I love you

ثم قالت :

ــ اكتب هذا بالعربية .

فتناولت منها القلم والورقة وكتبت :

ــ قال : أحبك .

والتفت إليها وقلت :

ــ من قال هذا ؟

قالت فى هدوء :

ــ أى رجل كيس وظريف .

ــ حقا من يقول هذا لابد أن يكون كيسا وظريفا ، ولكننى للأسف لست كيسا ولست ظريفا ، فلو كنت كيسا لقلت هذا القول المأثور قبله .

وصمت وأطرقت برأسى ، فراحت تعيد كتابها وورقها وقلمها إلى حقيبتها وهى تقول :

ــ لا تقنط : لم يفتك بعد قطار الحياة ، تستطيع أن تتعلم سريعا إذا كانت عندك رغبة أكيدة فى تذوق ما فى الدنيا من جمال .

وقامت وتركتنى وذهبت ، وجعلت أبحث عنها بعينى فى كل مكان فى الطائرة ولكنها كانت قد اختفت ، كأنما كانت طيفا زائرا ثم غاب .

وحاولت أن أتمدد فى مقعدى وأن أستقر فيه دون جدوى ، فقد كنت

أتلفت بين الفينة والفينة أنقب عنها ، وأخيرا لمحتها قادمة فجعلت أتفرس فيها دهشا ، لم أفطن إلى أين ذهبت ومن أين عادت ، ووقفت عند رأسى وقالت :

— لماذا لم تتبعنى ؟

— إلى أين ؟

— إلى تحت .

ولم أفقه مما تقول شيئا ، وإذا بها تمد يدها إلىّ وتجذبنى من يدى فأسير خلفها وأنا صامت لا أدرى أين نذهب .

وعند منتصف الطائرة وجدت بابا صغيرا يبدأ بسلم يقود إلى بطن الطائرة ، وهبطت وأنا خلفها ، وإذا ببار صغير حوله مقعد نصف مستدير صفت فوقه حشايا وثيرة والتفتت إلىّ وقالت :

— أتحسب أيها التاجر الكبير أن الأعمال الهامة تجرى فى المكاتب ؟ إن كنت تحسب ذلك فأنت واهم ، وخير لك أن تعود من « كانو » قبل أن تصل إلى أكرا ، إن أعظم الأعمال لا تتم ، وأكبر الصفقات لا تعقد إلا حول مائدة عليها كئوس يتوسطها جردل به ثلج حول زجاجة شقراء أو فى لون النبيذ ، هل تعرف النبيذ ؟

— لا .. أعرف الكوكاكولا .

وتناولت زجاجة كوكاكولا وجعلت أشربها وأنا أصغى إلى الحديث الدائر بين الرفاق القادمين من بلاد شتى ، وقد ربطت بينهم ساعات الرحلة الطويلة التى كانت تمر فى بطء شديد .

وجاء المضيف يلتمس منا أن نعود إلى أماكننا لنتناول الغـداء ، وهممت بالنهوض والانصراف فقد ضقت بالمكان ، ولكننى آثرت أن أتريث حتى تقوم ، فقد كانت قطب الرحى ومركز الإشعاع .

وقامت وصعدت ونحن خلفها كأنما كنا من الأتباع ، واحتللنـا أماكننا ، والتفتت إلّى وقالت :

ـــ أنت محظوظ لأننى سأخلدك فى قصة من قصصى .

فقلت وأنا ألوك قطعة من الدجاج الجاف الذى تعذر على السكين قطعه :

ـــ أشكر لك هذا التشريف .

ـــ كم يوما ستمكث فى أكرا ؟

ـــ عشرة أيام أو أسبوعين .

ـــ ما رأيك فى أن تلقننى كل يوم درسا فى العربية ، مقابل أن ألقنك دروسا فى فن الحياة .

ـــ هذا اتفاق جائر .

ـــ لماذا ؟

ـــ لأننى أنا الكسبان .

لا تنظر إلى الأمر بعقليتك التجارية ، بل انظر إليه نظرة فنان ، إن كل أخذ يقابله عطاء .

ـــ ومن أين لى هذه النظرة ؟

ـــ قل لى أولا هل اتفقنا ؟



ولكنى آثرت أن أتريث حتى تقوم ،
فقد كانت قطب الرحى ومركز الإشعاع

ـــ وهل يرفض تاجر صفقة رابحة ؟

وبلغنا مطار « كانو » فى الساعة الخامسة مساء ، وهبطت الطائرة تتزود وتتأهب لاستئناف الرحلة ، وغادرنا الطائرة ووقفنا ننظر إلى المبنى الذى كان على هيئة قطاع فى أسطوانة ، يقوم على قوائم من الخرسانة طليت بلون النبيذ ، وطليت حوائطه ونوافذه بلون الفستق .

وصعدنا إلى قاعة الانتظار وكانت منسقة تنسيقا بديعا ، وكان بها دكان صغير يعرض بعض تماثيل من الأبنوس الأسود ، وبعض المصنوعات الجلدية البدائية .

وجلست أنا وهى إلى مائدة ، وأقبل الجرسون الأسود ووقف ينتظر أوامرنا ، فإذا بها تقول :

ـــ وسكى وعصير فواكه .

والتفتت إلىّ وقالت وهى تضحك :

ـــ إن عصير الفواكه لا يسكر .

فقلت لها :

ـــ ما أكثر ما يسكر دون أن يكون خمرا ، وإن نشوته لأكثر متعة من نشوة مفتعلة ، فالخمر التى نشربها من عين جميلة قد تكون أعمق تأثيرا من زجاجة النبيذ ، والنشوة التى تغرسها روح قوية فى أعماق نفوسنا أبقى من نشوة راح مترعة بأعتق خمر ، الأولى باقية متجددة والثانية سرعان ما تنقشع ولا يبقى من أثرها إلا الصداع الذى يحطم الرءوس .

فاقتربت منى وقالت :

ــ تكلم .. تكلم ، أنت شيء جديد بالنسبة لى ، أحسب أنك ستكون شخصية ممتعة ، تكلم فإن كل كلمة تنطقها توحى إلىّ بفكرة .. تكلم .

ــ فأنا إذن لست بالنسبة إليك إلا مجرد مادة ، كالصلصال الذى يصنع منه المثال تمثاله ؟

ــ إن المثال يا عزيزى يحب تمثاله بعد أن يتشكل أكثر مما يحب كثيرا من البشر .

ــ إنه أنانى ، إنه لا يحب تمثاله ولكنه يحب نفسه ، يرى عبقريته التى يهيم بها مجسمة فيه .

ــ ومَن مِن البشر يا عزيزى ليس أنانيا ، فلنتحدث بصراحة ، لماذا تلازمنى كظلى منذ بدء الرحلة ، ستقول لأننى جميلة وتحسب أنك ستفحمنى بهذا الرد ، ولكننى أقول لك إنك تلازمنى لأنك تريد أن تسعد وحدك بهذا الجمال ، أليس كذلك ؟

ــ أظن ذلك .

ــ بل هذا هو الواقع ، لو حللنا مشاعرنا فى أمانة لما أضفينا على أفعالنا كثيرا من النعوت الخلابة الخداعة .

ــ ماذا تقصدين ؟

ــ أقصد أن كثيرا من أفعالنا التى نردها إلى جانب الخير فى أنفسنا ليس منبعها الخير ، فأنا مثلا قد أجدك مفلسا فى مدينة فأمدك ببعض المال ، لا عن خير متأصل فى أعماق ، بل لأننى أريد أن أرضى غريزة التفوق فى

نفسى ، وأن أشعرك أننى أقوى منك .

فقلت لها لأرضى غرورها :

ـــ إن مادتك وفيرة أيتها الأميرة .

واعتدلت فى مقعدها وقالت :

ـــ هل قرأت شيئا مثل هذا من قبل ؟

ـــ أبدا .

ـــ ألم تقرأ مبادىء علم النفس ؟

ـــ وأين لتاجر مثلى مثل هذه الكتب ؟

ووافى ميعاد مغادرة « كانو » فعدنا إلى مقاعدنا فى الطائرة ، ولما أخذت طريقها فى السماء مالت الأميرة نحوى وقالت :

ـــ أحس رغبة فى أن أفضى إليك بحقيقة أمرى .

فقلت وأنا أبتسم فى سخرية :

ـــ هل ذلك تحقيق لرغبة خيرة جاشت فى نفسك ؟!

ـــ أبدا ، بل رغبة فى أن يزداد أحدنا قربا من الآخر ، إننى لست أميرة ، ولم أكن فى يوم من الأيام من سلالة الروس البيض الفارين من وجه الشيوعية ، ولكننى انتحلت ذات يوم شخصية أميرة روسية فتفتحت السبل فى وجهى ، وعز علىّ بعد أن أحرزت ذلك النجاح أن أتخلى عن سحرى ،فاحتفظت بشخصية الأميرة من ذلك اليوم .

وصمتت وراحت تنظر إلىّ كأنما تستشف فى وجهى وقع حديثها ، وتنحنحت ثم قلت :

ــ ما دمت قد أفضيت إلى بحقيقة أمرك ، فسأحدثك فى صدق عن شخصيتى ، إننى مصرى أجوب أرجاء العالم لأجمع مواد قصصى

وقبل أن أتم حديثى انفجرت ضاحكة وقالت :

ــ كم أنا مسرورة ! ما كنت أحسب أن مجرد إصغائك إلّى سيبدلك كل هذا التبدل ، لقد قلت لك إن القطار لم يفتك بعد ، وها أنت ذا تثبت أنك تستطيع أن تكون تلميذا ناجحا ، ولكن لا بأس إذا كان خيالك قد قصر عن أن يمدك بمهنة أخرى غير كتابة القصص : المهن التى تستطيع أن تجذب بها اهتمام الناس كثيرة ، تستطيع أن تقول إنك بطل العالم فى الشطرنج ، أو أنك قد عبرت المانش سباحة ، أو أنك ضربت الرقم القياسى فى سرعة السيارات . إن هناك أشياء كثيرة : بداية طيبة على كل حال ، وستعلمك الأيام والظروف كيف تختار ميدان التفوق الذى يجعلك محط إعجاب الناس .. استمر .

قلت وأنا أنظر إليها دون أن تختلج عينى خلجة :

ــ إننى قصاص مصرى ، وسأكتب قصتك ، ولكن حذار فإن عيبى أننى أسرد الواقع كما هى حتى الأسماء قد لا أعمد إلى تغييرها .

واعتدلت وقالت فى لهجة أستاذ :

ــ ليس هناك يا عزيزى واقع فى القصة كما هو واقع فى الحياة ، حتى المشهد الذى تنقله من الواقع لا يمكن أن تنقله كما هو ، لأنك تصوره من خلال نفسك .

وابتسمت ابتسامة عريضة وقالت :

— ستصبح شيئا آخر بعد أن ألقتك دروس الحياة .

ودنونا من أكرا وتأهبنا لمغادرة الطائرة ، وإذا بها تلتفت إلى فجأة وتقول :

— أين ستنزل ؟

— لا أدرى بعد .

— ألم تحجز مكانا قبل وصولك ؟

— أبدا .

— وهل هناك من ينتظرك فى المطار ؟.

— إننى لا أعرف أحدا فى أكرا .

— إن المثّال يا عزيزى يحب تمثاله بعد أن يتشكل .

— سأنزل فى أى فندق ألقاه .

— ليس فى أكرا إلا فندق واحد كبير ، ولن تجد فيه مكانا .

وحملت حقيبتى وهبطت خلفها ، والتفتت إلىّ وقالت :

— اذهب إلى فندق أمباسادور ، فإذا لم تجد لك غرفة ، ولن تجد ، فخذ مفتاح غرفتى ، قل لهم : غرفة البرنسيسة ناتاشا ، وانتظرنى حتى أعود ، فقد ألقنك الليلة الدرس الأول فى كتاب فى الحياة .

فتاة من غانا

١

حى « كانتو نمتس » فى أكرا . إنه لا يختلف كثيرا عن أحياء أكرا الراقية . طرقات معبدة ، وأعمدة النور الأبيض على جانبى الطريق ، ومجموعة من « البانجالو » المتقاربة ، و « البانجالو » منزل من طبقة أو طبقتين سقفه مخروطى الشكل من القرميد الأحمر ، وحوائطه مطلية باللون الأصفر ، وحوله سور خشبى من لون القرميد ، إنه منزل على غرار المنازل فى الريف الإيطالى .

وأغلب النازلين فى حى « كانتو نمتس » من الإنجليز الذين يعملون كمستشارين فى الوزارات ، وإن التقاليد البريطانية لتبرز بوضوح فى هذا الحى ، وإن كانت هى السائدة فى جميع الأحياء الأخرى ، حتى الحى الذى قامت فيه السوق الوطنية الكبيرة .

وعلى ناصية حى كانتو نمتس قام منزل من طبقتين ، يطل على الطريق وعلى الأرض الفسيحة الخضراء التى انتشرت فيها أشجار الليمون وبعض أشجار النخيل وأشجار ضخمة لا تنبت إلا فى المناطق الاستوائية .

وفى غرفة السفرة التى كانت من الطراز الإنجليزى راحت جانيت تعد المائدة لشخصين ، وكانت فى لون البن المحمص ، واسعة العينين لا

يشوب بياضهما صفرة ، ولا سوادهما الداكن شحوب ، مقوسة الحاجبين يكاد شعرها الغزير أن يلتقى عند منبت أنفها المفلطح الأفطس ، غليظة الشفتين وقد طلتهما « بروج » فاتح ، مستديرة الذقن ، يتدلى من أذنيها قرط دقيق ، خشنة الشعر لم تتركه على حاله كما فعل أترابها بل كانت تستعين بالزيوت والمراهم على أن تزيل خشونته .

لم تكن تلتحف بإزار من قماش بنى فيه بعض النقوش الفاتحة ، أو أزرق مزركش ببياض ، أو أى أنواع الأقمشة المصنوعة من ألياف صناعية مستوردة من اليابان ، بل كانت ترتدى ثوبا أنيقا من لندن ، قدمه إليها ألبرت هدية يوم عاد من إجازته السنوية التى يمضيها دائما فى بلاده .

واتجهت إلى الردهة وفتحت الراديو ، فسرى صوت المغنى الغانى فى المنزل ينفث السحر ويبعث النشوة ويفتح عوالم الأحلام ، فراحت جانيت تهز أردافها وتتمايل طربا وهى تعد السفرة ، فما من امرأة أو فتاة فى غانة لا تهتز إذا مس أذنيها النغم حتى إذا كانت فى الطريق .

وسمعت صوت سيارة قادمة ، وأصاخت السمع ، ودق الكلاكسون دقتين متتابعتين ، إنه هو ؟ واندفعت صوب النافذة تنظر وبين جنبيها خفق لذيذ . رأت السيارة الأوستين واقفة ، وألبرت يهبط منها بقامته الطويلة المنتصبة ووجهه المائل إلى الحمرة وشعره الأصفر وعينيه الزرقاوين فى لون الفيروز .

وأسرعت تنتظره عند الباب ، ولمحها واقفة فابتسم فأضاءت بسمته أرجاء نفسها ، فإن تلك البسمة التى تدغدغ كل حاسة أكثر ما تحبه

فيه ، لم تستهوها قامته الطويلة ، ولا لونه الأبيض ، ولا أسلاك الذهب التى تتهدل على جبهته ، ولكن أسرتها بسمته الرقيقة العذبة التى تعزف على أوتار فؤادها أعذب أنشودة غرام عبق بها جو المحبين .

وطوقها بذراعيه وضمها إليه وقبلها ، ثم سار معها وقد لف ذراعه حول خصرها حتى بلغ غرفتهما ، وبدأ يخلع ثيابه فعاونته على خلع قميصه ، ثم جلس على حافة السرير فمالت تخلع له حذاءه .

وانطلقا إلى غرفة السفرة وجلسا إليها ، وراحت تصب له الوسكى فى كأسه فقال :

ــ وسكى ؟.

فقالت وهى تبتسم :

ــ ألم نتفق ؟! وسكى فى الغداء ونبيذ النخيل فى العشاء ؟!

ــ ولكننى أفضل نبيذ النخيل .

ــ إنك لا تحتمله يا حبيبى .

ــ إنه يؤجج النار فى روحى .

فقالت فى دلال :

ــ يكفى أن تؤجج نارك فى الليل .

واحتسى كأسه ومال عليها يقبلها .

وتناولا غداءهما ، وذهبا إلى غرفتهما فتمدد ألبرت فى السرير ، وأخذت هى حذاءه وخرجت تمسحه فى حنان وهى تغنى أغنية حب تنتشر بين حناياها مشاعر كالبخور العبق بالسحر ، المشبع بالنشوة .

٢

الساعة الرابعة مساء ، الموظفون يغادرون مكاتبهم ، والحوانيت تغلق ، والناس يعودون إلى دورهم ليستعدوا لقضاء سهرتهم فى السينما ، أو فى بار ، أو فى بيت من بيوت الأصدقاء حيث تقدم الأنبذة والخمور ، وتشنف الآذان موسيقى هادئة ، وتتمتع العيون والنفوس برقص كله حيوية وحركة .

وقد وقف تاندو أمام قطعة من مرآة مكسورة علقها فى غرفته يسوى شعره المفلفل ، وارتدى قميصه النظيف الأبيض المخطط بخطوط زرقاء ، وبنطلونه الأزرق القصير ، ودس رجليه فى نعاله بعد أن غسله .

وهبط مسرعا إلى الطريق وهو يتلفت ، وخطر له أن ينادى تاكسيا ، فالمسافة بعيدة بين الحى المتواضع الذى يسكنه وبين حى « كانتو نمتس » ، ولكنه كان فى أشد الحاجة إلى الشلنات الثلاثة التى سيدفعها للتاكسى ، فهى ذخيرته التى أبقاها ليواجه بها جدب أيام الشهر الأخيرة التى يمضى أغلبها على طعام واحد يتناوله فى اليوم مرة .

وسار تاندو مهرولا فى الطريق ، لا يلتفت إلى البضائع المكدسة على جانبيه وقد وقف خلفها نسوة لتلبية طلبات المشترين ، ولم يفكر فى أن يقف عند بائعة الذرة التى اعتاد أن يقف عندها كل يوم بعد مغادرته

للمحل ينتظر « كوز » الذرة الذى يشوى على الفحم ، فقد كان مشغولا بالفكرة التى استولت عليه ، والدم الحار المتدفق الذى يجرى فى عروقه يكاد يصهر رأسه .

ووقف يتململ ، وأخيرا أقبل الأوتوبيس ، وهو سيارة بدفرد ، لا هى سيارة كبيرة ولا هى سيارة ركوب ، فى مقدمتها مكان للسائق وحده ، وصفت فى فراغها مقاعد من الخشب ، سقفها منخفض حتى إذا جلس على المقعد رجل طويل كان عليه أن يحنى رأسه . واندس تاندو بين الكتل البشرية التى حشرت فى السيارة ، واندفعت السيارة تنهب الأرض ولكن مشاعره كانت تسبقها ، كان يود أن يصل إلى « كانتو نمتس » قبل أن يعود ألبرت إلى بيته بعد أن يتناول شاى الساعة الخامسة فى النادى .

ووقف الأتوبيس بعيدا عن الحى ، وانطلق تاندو يغذ السير وفى وجهه عزم وبين جنبيه مشاعر مختلفة من الأمل واليأس ، من الرهبة والرغبة ، من العنف والحنان .

وطرق الباب خافق القلب ، وفتحت جانيت ، ولما رأته بان الدهش فى وجهها وانتشرت سحابة من الضيق فى صدرها ، ولكنها فسحت له الطريق وقالت وعلى شفتيها بسمة باهتة :

ـــ تفضل .

ودخل وجلس فى المقعد القريب من الراديو وجلست جانيت قبالته ، وساد بينهما صمت قلق مدة ، ثم قال تاندو :

ـــ جئت يا جانيت أعرض عليك الزواج مرة أخرى .

ـــ قلت لك يا تاندو أكثر من مرة إننى آسفة .

ـــ ولكننى أحبك يا جانيت ، وأنا أقدر رجل على إسعادك ، لقد تزوج جميع أصدقائنا ، تومو كورو وباردو وجريما ونانا وأنجبوا أطفالا ، لو أننا قد تزوجنا مثلهم لكان لنا اليوم ولدان .

ـــ قلت لك يا تاندو إننى أحب ألبرت .

ـــ وما نهاية هذا الحب ؟

ـــ نهاية كل حب الزواج .

ـــ أنت واهمة يا جانيت إن دار بخلدك يوما أن ألبرت يتزوجك .

ـــ ولماذا لا يتزوجنى ما دمت أحبه ويحبنى ؟

ـــ لأنه سيضطر إلى العودة إلى بلاده يوما .

ـــ وماذا فى ذلك ؟ أذهب معه .

ـــ أتظنين أنه يقدمك إلى أهله وأصدقائه ويقول فخورا : أقدم لكم زوجتى . لا لا يا جانيت هذا لن يكون أبدا .. فكرى .. فكرى جيدا .

ـــ لقد فكرت واقتنعت . إنه يفخر بى ، يستصحبنى كلما ذهب إلى سينما أوديون أو سينما ركس ، ويقدمنى إلى أصدقائه فى الأمباسادور وهو يقول : زوجتى . إننى زوجته يا تاندو ، زوجته أمام الله والمجتمع .

ـــ هذا خداع ، هذا خبث ودهاء ، لقد نفث فيك سمومه ، وزين لك الزيف حتى بدا لك حقيقة ، إنه يقدمك هنا لأصدقائه ويقول : زوجتى لأن الجميع هنا يعرفون الحقيقة ، يعرفون أن زوجتى هى الكلمة

المهذبه لخليلتى ..

ــ تاندو .. اسكت .. اسكت أرجوك .

ــ تخشين أن تنهار أوهامك ، أن تنقشع الغشاوة عن عينك ، أن تنبلج لك الحقيقة المرة البشعة ..

ــ غيرتك العمياء تصور لك كل هذه البشاعة ، تجعلك تنطق سما ، تقذف حممك كبركان ثائر مدمر . إنه لمما يملأ نفسك مرارة أن تقتنع أننى أستطيع أن أسعد معه ، إننى لست أول وطنية تزوجت أجنبيا ، بل بريطانيا على التحديد ، فقد تزوج وزير المالية السابق فتاة من غانا ولا تزال زوجته . وأنجب منها ثلاثة أبناء متفتحين كزهورنا البرية الندية ، إنك تعرف أننى سعيدة ، فلماذا جئت تعكر صفو حياتى وتزرع بذور الشك فى نفسى الصافية ؟

ــ إننى أحبك يا جانيت ، ولا أزال أحبك ، وسأظل أحبك ، وإن هذا الحب هو الذى يدفعنى إلى بثك ما أومن به ، ولو وسوست لى نفسى أن غيرتى هى التى تحرك بيانى لأطبقت فمى وصبرت على النار التى ترعى فى أحشائى ، ماذا إذا أنجبت له ولدا ، هل ستشدينه إلى ظهرك بإزارك ؟ وإذا حملك إلى بلاده فكيف تعيشين فى عالم غريب ؟

ــ إذا أنجبت له فسيكون لأبنائى مربية تعنى بهم ، وإذا حملنى إلى بلاده فإننى أعرف كيف أتصرف ، إننى أذهب معه هنا إلى كنجزواى وإلى أوديون وإلى الأمباسادور وأتصرف كأية أوروبية مهذبة .

ــ الأمر ليس أمر تصرف فى محال أزياء وسينمات وفنادق يا جانيت ،

الأمر أعمق من هذا .

ومد يده وأدار الراديو فانبعث صوت المغني الغانى عذبا حنونا ، وسرت الموسيقى رقيقة فياضة بالعواطف جياشة بالأحاسيس ، وقال :

ـــ هذا الصوت .. هذه الموسيقى .. الأرض الطيبة التى ندرج عليها .. حقول الكاكاو .. هجير الشمس .. أصوات الباعة فى الأسواق .. ضحكات الصحاب .. دموع الأهل .. كل هذه أنا وأنت . لو انتشلك أحد من هذا الجو فإنما يقضى عليك . ستكونين كسمكة أخرجت من الماء .. ستموتين اختناقا .

وأسرعت إلى الراديو تغلقه وهى تصيح :

ـــ اسكت .. اسكت ، فما جئت إلا لتعذبنى .

ووقفت مبهورة النفس وقالت :

ـــ اسمع يا تاندو ، إننى قد عزمت ولن يثنينى كلامك عن عزمى ، فما كان لأى قول أن ينزع الحب من سويداء القلوب .

ونهض تاندو وسار نحو الباب ، وقال وهو يلتفت إليها من فوق كتفه وفى عينيه بريق حب صادق :

ـــ إننى ذاهب يا جانيت ، وقبل أن أذهب أعود وأقول إننى أحبك ، وسأظل أحبك ، وسأظل أحبك ، ولن أتخلى عنك ما حييت .

وأغلق الباب خلفه وذهب .

٣

ومرت الأيام مترعة بالسعادة ، وجانيت تعيش فى حلم بهيج ، تنتقل مع من خفق بحبه فؤادها بين دور السينما القليلة المنتشرة فى المدينة والنادى والفندق المتألق بالأنوار الحمراء والخضراء والصفراء ، والذى تخفق بين جنباته موسيقى راقصة تفعمها بالنشوة أكثر من كئوس الويسكى والجن التى تشربها فى البار .

كانت تحتذى به ، تقلده فى كل ما يفعل ، وتطيع طاعة عمياء أوامره ونواهيه ، فقد كانت مفتونة به حتى أنها كانت ترى فى كل تصرفاته الحكمة والسداد والقدوة التي ينبغى عليها أن تعمل لها .

وكان يحيطها بعطفه ويغدق عليها كل حنانه ، فكانت دنياه جنتها ، وقربه منها هو الوجود ، والبسمة التى ترف على شفتيه البلسم الشافى من ذلك القلق الذى بدأ ينبت فى أغوارها السحيقة ، فقد اقترب موعد سفره إلى بلاده ليقضى إجازته السنوية ، ولقد سافر وعاد إليها أكثر من مرة ، ولكن ما بالها تنكر منه بعض تصرفاته وإن كان يبالغ فى إظهار عطفه وحبه وحنانه ؟!.

وجلسا ذات يوم إلى المائدة ، وإذا بجانيت تطرق ساهمة وقد اكتسى وجهها بمسحة من الأسى ، فالتفت إليها وقال :

ـــ جانيت ! ماذا بك ؟ .

ولم تحر جوابا .

ومد يده إلى ذقنها ورفع وجهها وقال :

ـــ جانيت : ماذا جرى ؟ .

وقالت دون أن تجرؤ على أن ترفع عينيها :

ـــ قلبي يحدثني أنك ذاهب ولن تعود .

وانهارت من عينيها الدموع ..

وخف إليها يكفكف دموعها بظهر يده ، ويضمها إلى صدره ويربت على ظهرها بكفه ، ولم يجد ما يقوله فظل صامتا يعبث بيده الأخرى فى شعرها .

وقالت فى توسل :

ـــ ألبرت .. قل إنك ستعود ، وأنك تحبنى وستظل تحبنى .. آه لو جف فيض حبك فإننى لن أعيش .

فقال فى صوت هادئ :

ـــ جانيت ، ألم نتعاهد على الزواج ؟ .

فهزت رأسها أن نعم .

فقال وهو يزداد قربا منها :

ـــ ألم نتفق على أن أحملك معى يوم أعود إلى بلادى ؟ .

فهزت رأسها أن نعم .

فقال وقد ألصق خده بخدها وراح يهمس فى أذنها :

ــ سنعلن زواجنا على الملأ فى لندن .

ــ وهل ستحملني معك ؟ .

ــ سأسافر لأهيئ العش السعيد ، ثم أبعث إليك لتلحقى بى .

ووضع جبهته على جبهتها وقال :

ــ لا أحب أن أرى الوجه الجميل وقد غام تحت سحابة من الكدر البغيض ، ابتسمى .

وابتسم فأحست كأن جميع همومها انقشعت ، وأشرق وجهها بابتسامة صافية منبعثة من قلب مؤمن بكل ما ينطق به الحبيب .

وجاء يوم الوداع ، وانطلقت معه إلى المطار حزينة كئيبة ، ولولا ذلك الأمل الذى غرسه فى نفسها لماتت كمدا ، ومد يده يصافحها فتطلعت إليه فى ابتهال تطلع العابد إلى إلٰهه ، وقال :

ــ سأبعث إليك .

وابتسم ولكن نفسها كانت قاتمة ، لم تبدد بسمته ركام الظلام الجاثم على روحها ، وضمها إليه فى قوة وجعل يلثمها ثم قال :

ــ ابتسمى يا حبيبتى ، فما أحب أن يكون آخر ما تلقيننى به هذا الوجه العبوس .

وأحست كأن خنجرا مسموما يغوص فى قلبها ، وأن نارا حامية تكوى قلبها ، وأن يدا قوية تكتم أنفاسها ، وأن مشاعر قاسية تتمدد فى صدرها حتى تكاد أن تمزقه ، ولم تقو على كتمان الثورة المتأججة بين ضلوعها فانفجرت تبكى وتنتحب .

وانطلق إلى الطائرة دون أن يتلفت ، وأسرعت خلف السور تنظر ، تحس أن روحها تفر من بين جوانحها ، وأقلعت الطائرة وحلقت فى الجو واتخذت طريقها إلى المجهول ، وانصرف المودعون ، وبقيت وحدها وقد تسمرت إلى الأرض تتطلع إلى السماء .

٤

وراحت جانيت تنتظر الرسالة التى سيبعث بها ألبرت يخبرها فيها أن تعالى فقد انتهى إعداد العش الجميل ، و لم يخالجها شك و لم تتدسس إلى نفسها ريبة ، فإن الإله إذا قال فعل ، وإذا وعد بر بوعده ، وما كان من طبع الإله أن يخون .

وراحت الأيام تمر وئيدة وئيدة ، وجانيت تتجمل بالصبر ، وتمنى النفس بالأمانى ، وتتلمس للحبيب المعاذير .

وانقضت ستة أشهر طويلة مملة ممضة لكأنما كانت دهرا ، كانت تسأل فيها ساعى البريد كلما مر بحيها عن رسالة لها ، وكانت تتلقى الرد فى كل مرة هزة نفى من رأسه ، ونظرة إستخفاف تلمع فى عينيه كالبرق الخاطف ما أسرع أن تختفى ، وعرفت مواعيد وصول البريد فلم تكن لتنتظر حتى يقدم الساعى لتسأله ، بل كانت تذهب إلى مكتب البريد تستفسر عن أملها الذى بدأت دعائمه يهتز فى أعماقها .

هل تكفر بإلهها ؟ هل يجوز عليه الكذب والخداع وخلف الوعد ؟ هيهات ، فما زالت فى نفسها بقية من يقين .

ووقف تاندو بعيدا يرقبها ، يحترم أساها وإن كان يحس نياط قلبه تتمزق ، ولا يجرؤ أن يقتحم عليها معبدها حتى لا تلج فى العناد وتتشبث

بالإله المزعوم . إنه يحس أنها فى حاجة إليه ليشد أزرها فى محنتها ، ويواسى وحدتها ، ويضمد جرح قلبها الذى بدأ يتقيح ، ولكنه آثر أن يتريث إلى أن يحين الحين .

وانبعث صوت المغنى الغانى يردد نفس الأغنية العاطفية التى انبعث بها يوم فتح الراديو فى منزل ألبرت ليدلل لها على أنها خاطئة فى قرارها الذى اتخذته يوم قالت له :

« إننى قد عزمت ولن يثنينى كلامك عن عزمى ، فما كان لأى قول أن ينزع الحب من سويداء القلوب » فاستشعر كأن قوة تنسكب فى روحه ، وأن عزما أكيدا يسرى بين جوانحه ، فقام وانطلق إليها .

ووصل إلى بيتها فألفاها خارجة منطلقة كطيف حزين ، فراح يتبعها دون أن يجرؤ على الدنو منها .

ودخلت مكتب البريد ، ووقف تاندو بعيدا يرقبها ، ودارت على عقبيها وعادت مطاطئة الرأس ، وفى قلبها حزن ثقيل .

وأسرع تاندو إليها خافق القلب ، وسار إلى جوارها دون أن ينبس بكلمة ، والتفتت ووقعت عيناها عليه ، فإذا بالدموع تترقرق فى مقلتيها ، ووجد تاندو لسانه فقال :

— جانيت ، أحبك .. وسأظل أحبك ولن أتخلى عنك ما حييت .

وألقت برأسها على صدره فأحست كأنما ألقت بهمومها ، فلم تعد وحيدة ، فإلى جوارها قلب صادق يخفق بحبها ، قلب إنسان كبير .

تحت سماء روما

انتصف الليل ، وابتدأ نبض الحياة فى الكباريهات يرتفع ، بينما كادت شوارع روما تقفز على الرغم من الأضواء الساطعة المنبعثة من كل مكان .

وخرج رواد سينما فياميتا وانتشروا فى فيا دى نيكولا داتلنتينو ، وكان أغلبهم من غير الإيطاليين ، فهذه السينما هى الوحيدة فى روما التى تعرض أفلاما أمريكية ناطقة بلغتها، دون أن تتغير اللكنة الأمريكية إلى لغة إيطالية ممدودة .

وخرج إلى الطريق ووقف يتلفت ، فوقع بصره على فتاة أسندت ظهرها إلى الباب ترتدى ثوبا أبيض حلى صدره بترتر يعكس الضوء عليه لون قوس قزح ، وقد ضمت إلى صدرها حقيبة من الجلد الأسود ، فوقف يتفرس فى وجهها برهة ثم سار فى طريقه .

وبلغ نهاية الشارع ووقف عند مصبه فى فيا ليونيدا دى بتشولاتى ، ثم تلفت ومد بصره إلى الفتاة الواقفة عند الباب فألفاها لا تزال فى مكانها ، وإن انحسرت الجموع التى خرجت من السينما .

وسرت فى نفسه وسوسة فكر فى أن يئدها وينطلق إلى غايته ، ولكنه ألفى نفسه يدور على عقبيه ويعود من حيث جاء ، حتى إذا اقترب منها

تريث قليلا ، ثم تقدم ثابت الخطو وقال وهو يحنى رأسه :

ـــ بنيسيرا .

فقالت وقد أسبلت جفنيها على عينيها :

ـــ بنيسيرا .

وانفتح الباب الذى كان مغلقا بينهما ، وأصبح كل شيء بعد ذلك ميسورا ، قال :

ـــ من روما ؟

قالت وهى تهز رأسها نفيا :

ـــ لا من نابولى .

قال فى ابتهاج كأنما قد فهم كل شيء :

ـــ أها .

وأشار لها برأسه أن هيا ، وسار وهى إلى جواره تصغى إليه وترد على أسئلته المتلاحقة بلا أو نعم .

واتجه إلى فيا فنيتو ، ووقف قليلا كأنما تذكر شيئا هاما وقال :

ـــ جائعة ؟

ولم تنبس بكلمة وإن كانت ملامح وجهها تنطق أن نعم ، ولم ينتظر جوابها بل قال :

ـــ وأنا أكاد أموت جوعا ، أعرف مطعما جيدا هنا أذهب إليه كلما فكرت فى أن أقضى سهرتى فى السينما ، تعالى .

وعرج فى طريق جانبى ، فإذا « برستورانى » قائم على مرتفع يطل على

الشارع يحيطه سور من حديد ، وقد سقف بتكعيبة عنب ، وشدت على وجهه أسلاك كهربائية تدلت منها مصابيح حمراء وبيضاء .

وصعدا فى الدرجات القليلة الموصلة إلى « التراس » واتجها إلى نضد منعزل ، وما أن استقر عنده حتى ألفيا أنظارهما تتجه إلى السقف ، فقد تدلت منه خيوط انتظمت فيها فحول البصل والثوم وقرون الفلفل الأخضر والأحمر .

وراح جرسون يمر بين المناضد وفى يده سيخ طويل به سجق خنزير مشوى ، وجعل يوزع ما فيه على الصحاف المترقبة على الموائد ، وجاء جرسون آخر ووقف عندهما ينتظر أوامرهما ، والتفت الشاب إلى صاحبته يسألها :

— هايج ؟ فات ؟ نبيذ ؟ جن ؟

قالت وهى تنظر إلى الجرسون :

— نبيذ وحساء وإسباجتى وسجق مشوى .

والتفت الجرسون إلى الشاب ، فقال وهو يبتسم :

— لم يعد لى أن أختار بعد أن أختارت السنيورا .

وانصرف الجرسون والتفت الشاب إلى صاحبته وقال :

— سنيورا أم سنيوريتا ؟

— إننى لم أتزوج بعد ، وقد أرسلت إلى بعض معارفى لينتظرنى اليوم على محطة القطار ، ولكننى لما وصلت بحثت عنه دون جدوى ، ولم أدر أين أذهب ، كنت فى محطة روما كالقشة فى المحيط ، أوه إنها ضخمة جدا

حتى إننى جعلت أجوس خلالها مذهولة ، وكدت أنسى الورطة التى كنت فيها .

— هذه أول مرة تزورين فيها روما ؟

— نعم .

فقال وهو يبتسم :

— إننى لست من روما ، ولكننى أعرفها أكثر من كثير من الرومانيين ، يخيل إلىّ أن الغريب كثيرا ما يعرف أكثر من أهلها ، فأهلها قد ينشأون فى حى من أحيائها دون أن يغادروه ، بينما هو يضرب فى أرجائها يكشف زواياها . اطمئنى فقد وجدت فى روما دليلا .

وصمت قليلا ثم قال :

— وما الذى جاء بك إلى روما ؟

— جئت أبحث عن عمل ، وكنت أعتمد على ذلك الصديق الذى لم يحضر ..

وأطرقت برأسها ، فقال وهو يربت بيده على ظهر يدها فوق المائدة :

— يمكنك أن تعتمدى علىّ .

ورفعت عينيها ونظرت إليه فى شكر ، وانفرجت شفتاها عن بسمة عذبة .

وراحا يتناولان الطعام وهو يقلب النظر فيها ، إنها جميلة تمتاز بتلك الأنوثة الطاغية التى تكاد أن تكون طابع الإيطاليات ، ولكن كان فيها شىء آخر غريب ، وجه طفل وعينان عميقتان ليس لهما قرار ، كلهما

أسرار .

وغادرا المطعم ، وكان يعتزم قبل أن يقابلها أن يعود إلى بيته بالترولل باص فهو يقطن بعيدا فى طريق المطار ، ولكنه رأى أن يكرمها فاستدعى تاكسيا وأفضى إلى السائق بالعنوان .

واخترقت السيارة شوارع روما الرئيسية ، وأخذ يشرح لها كل ما تقع عليه عيناها ، ودنا منها ولف ذراعه حول عنقها ، فإذا بها تلقى برأسها على كتفه ، وانطلقت السيارة فى طريق هادئ لا يعكر صفوه إلا صوت كلاكس أو نور كشاف سيارة قادمة .

وأطبق شفتيه وجعل ينعم بالمشاعر اللذيذة التى أخذت تنتشر فيه كأبخرة عبقة بالنشوة ، وراح يزداد بها التصاقا ويزداد ضغط ذراعيه عليها ، فتربو أحاسيس السعادة فى أعماقه وتلفه طلائع غيبوبة مشتهاة .

ووقفت السيارة أمام بيته ، وانتظر أن ترفع رأسها عن كتفه وتهبط ، ولكنها ظلت ملتصقة به مغمضة العينين ، وكأنها تخشى أن يوقظها من أحلامها العذبة ، فراح يهمس فى أذنها :

ـــ هيا يا عزيزتى ، لقد وصلنا .

وفتحت عينيها ونظرت إليه وابتسمت ، ثم تحركت لتغادر السيارة فراح يسند ظهرها فى حنان ، واتجها إلى المصعد وما أن بدأ فى الصعود حتى عادت تلقى برأسها على كتفه .

ووضع المفتاح فى الباب وأداره فى رفق ، ثم مد يده وأنار الردهة وقال وهو يفسح لها :

— تفضلى .

ودخلت وأدارت عينيها فى المكان ، رأت بعض لوحات على الحائط ، ورفا أنيقا عليه بعض تماثيل دقيقة ، ومرآة وبوفيه استيل فوقه تليفون ، وسبقها إلى الباب المواجه للردهة وفتحه وقال :

— غرفة الانتظار وغرفة السفرة .

ومدت رأسها ونظرت فألفت حيطان الصالون لصق عليها ورق مزخرف جذاب ، والمقاعد كسيت بقماش من نايلون قريب الشبه بألوان الحائط ، وفى زاوية من الغرفة قامت أباجورة كبيرة من البلاستيك ، وفى الزاوية الأخرى راديو وبيك آب .

ويقسم الغرفة نصف حائط يفصل بين غرفة الاستقبال وغرفة الطعام ، و لم يكن ذلك الفصل تاما ، فإن من يتقدم بضع خطوات فى غرفة الاستقبال يرى المنضدة والكراسى التى صفت حولها والدلسوار .

و لم يطل مقامهما طويلا ، و لم يدلفا إلى الصالون بل سار وهى خلفه إلى حجرة النوم ، وفتح الباب وقال :

— تفضلى .

ودخلت وبقى فى الخارج ، وألفاها تدير عينيها فى المكان فمد يده وأغلق عليها الباب ، ثم راح يطفئ الأنوار ، واتجه إلى غرفة الاستقبال وأطفأ نورها و لم يعد ينبعث فيها إلا ضوء الأباجورة الخافت الذى يضفى على المكان جوا شاعريا أخاذا .

وأدار البيك آب ، فسرت موسيقى حالمة تجلب الدفء للأرواح ،

وألقى برأسه على مسند المقعد وشرد يسعد بالأخيلة التى ولدتها الخمر والموسيقى والأنثى الجميلة التى تخلع ثيابها فى الغرفة المجاورة .

وانقضى بعض الوقت فقام إلى البيك آب وأغلقه ، وأطفأ نـور الأباجورة ثم اتجه غرفة النوم وراح يفتح بابها فى حرص . ووقع بصره أول ما وقع على ثوبها وقد ألقى على طرف السرير فى إهمال ، ومد نظره إلى الفراش فألفاها وضعت رأسها على الوسادة وتمددت بقميص النـوم كتمثال بديع ، وتقدم من السرير . ومال عليها وتفرس فى وجههـا فألفاها قد راحت فى سبات .

نفخ الهواء فى وجهها فلم تحس به ، ومال وطبع على خدها قبلة فلم تختلج لها خلجة ، ووقف يفكر فخطر له أن يتركها نائمة وحدها وأن يذهب إلى غرفة الخادمة يقضى فيها ليلته ، ولكنه رفض الفكرة ، فقد علمته تجاربه أن ما لا يؤخذ مباغتة لا يسهل أخذه ، وأنه لو ترك الستائر تنسدل ستارة إثرستارة بينه وبين امرأة فما أصعب معاودة رفعها ، ووطن العزم على أن يقضى معها ليلته فى فراش واحد .

لعلها تستيقظ ، ولكن ملاك النوم كان قد حملها معه يطوف بها عوالمه .

وارتدى بيجامته ، وتقدم من السرير وأدام النظر إليها وفى جوفه رغبة جامحة ، ومال ومد يده يسبل الغطاء عليها ، ثم اندس فى الفراش إلى جوارها وراح يتقلب كأنما يتقلب على جمر لا يستقر له حال .

وراح الوقت يمر وقد أرهفت حواسه ، لا يعرف النوم طريقه إلى

جفونه ، والقلق المنتشر فى نفسه قلق ممض مرة ، وقلق مزيج من اللذة والألم والضيق .

وأرهقته مشاعره ، وأخيرا ضمه النوم إلى صدره الحنون ، وما استيقظ إلا وكانت الشمس تملأ الغرفة ، وفى مثل لمح البصر تذكر كل ما حدث فى أمسه . فنظر بعيون مفتوحة إلى جواره فلم يجدها ، ولكنه وجد أثر يدها السحرية فى كل ما تقع عليه عيناه ، فقد كانت الحجرة منمقة تنميقا عجيبا حتى كاد ينكرها .

وأزاح الغطاء وأسرع إلى المرآة يصلح شعره ، ثم خرج فمس أذنيه صوت وسوسه منبعثة من غرفة الطعام ، فخف إلى هناك فألفاها تعد المائدة ، وأشرق وجهه بابتسامة وقال :

— صباح الخير .

فقالت وهى منهمكة فى عملها :

— صباح النور .. الشاى هنا أم فى غرفتك ؟

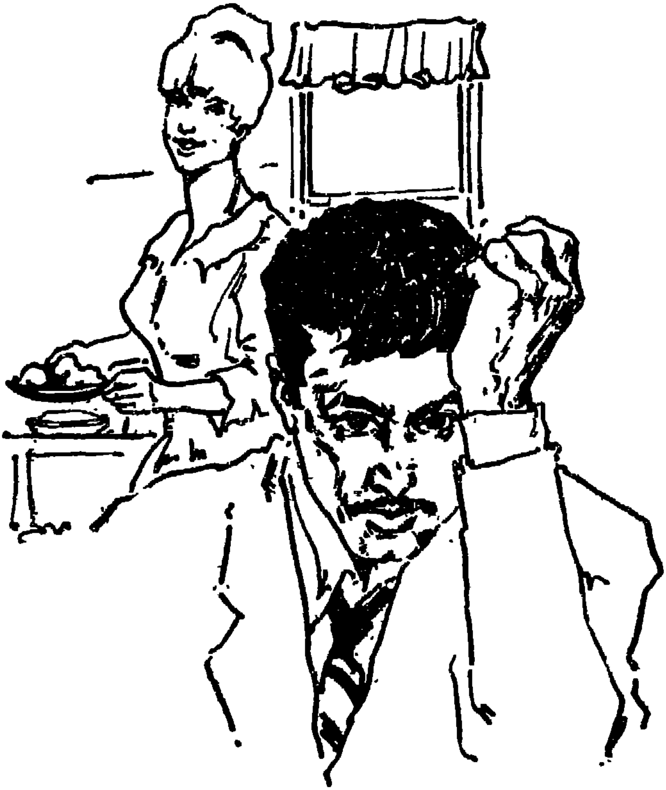
فقال وهو يغادر الغرفة ويستشعر نشوة :

— سنشربه معا على المائدة .

وعاد بعد أن ارتدى ثيابه ، وجلسا معا يشربان الشاى ويتناولان الإفطار وقال لها :

— لابد أنك قدمت إلى روما لتعملى مديرة منزل .

فقال وهى ترنو إليه وفى عينيها بسمة لم يدر مدلولها ، فعيناها عميقتان ليس من الميسور بلوغ قرارهما :



أستطيع أن أقسم أننى أعرف الآن مكان
أى شىء فى الشقة أكثر مما تعرفه أنت

— نعم . وما أكثر المنازل التى أدرت شئونها !

وانتهى من تناول طعامه ومسح فمه ، ثم مال عليها وطبع على خدها قبلة وهو يقول :

— أنت مديرة منزل رائعة .

ورفعت رأسها إليه وقالت :

— ماذا تريد أن تتغدى اليوم ؟

— سأشترى لك قبل أن أذهب إلى عملى ما نحتاج إليه .

— لسنا فى حاجة لشراء شىء ، فى الثلاجة دجاجة مذبوحة ولحم مفروم ، وفى المطبخ مكرونة ، وأعتقد أن هذا يكفى اليوم .

— هل أدلك على البصل والملح والزبدة ؟

فقالت وهى تضحك :

— لا تدلنى على مكان شىء ، أستطيع أن أقسم أننى أعرف الآن مكان أى شىء فى الشقة أكثر مما تعرفه أنت .

فقال وهو يقترب منها :

— سنطوف الليلة بروما معا ، وغدا نزور بعض متاحفها ، وبعد غد ..

— بعد غد ؟

— نعم . روما واسعة تحتاج إلى أيام كثيرة للطواف بمعالمها ، ستبقين معى حتى تعرفى روما وتستقرى على رأى .

— أخشى أن أثقل عليك .

ـــ حذار أن تقولى ذلك مرة أخرى .

وقبلها وانصرف .

وذهب إلى عمله مشتت الذهن يفكر فى برنامج يومه وغده ، وما يكاد يستقر على رأى حتى يعيد تبديله ، فكر فى أن يذهب بها إلى الكلسيوم والقلعة وقبر الجندى المجهول ، ولكن هذه الأماكن تغلق قبل الغروب ، وهو يريد أن يمكث معها حتى المساء ليتمتع بها ، ثم يخرج يطوف معها روما حتى إذا ما كاد الليل أن ينتصف عاد بها إلى البيت ليستأنف متعته .

وراح يفكر فى سياحة أخرى ، أن يذهب بها إلى النافورات المنتشرة فى أرجاء العاصمة ، يحدثها عن تواريخ التماثيل وعما ترمز إليه من أفكار ، ثم ينطلق بها إلى فيلا أمبرتو ليريها كيف يمارس الحب فى روما . ولكن النافورات متباعدة وستجهده مثل هذه السياحة حتى إنه لن يتمتع بليلته .

واستمر يفكر ويقسم روما طولا وعرضا ، ويقلب الرأى وقد وضع نصب عينيه أنه يتمتع بها غاية المتعة ، وأن يطوف بها أماكن لا يجهده الوصول إليها ، ولا تكون الرحلة على حساب متعته .

وانقضى وقت عمله وما استقر على رأى ، وإن كان فى قرارة نفسه يفضل أن يمضى هذا اليوم معها فى البيت لا يبرحانه .

وأسرع إلى الترولل باس الذى يحمله إلى بيته . وقد انتشرت فى أرجائه سعادة عارمة ، وفكر فى أن يشترى من البقال القريب من البيت زجاجة نبيذ ، ولكنه تذكر أن عنده زجاجة وسكى وزجاجة من النبيذ

الأحمر .

وشرد وقد احتلت ذهنه غرفة نومه وهو وهى ولا شىء آخر . وبلغ الترولل باس محطة نزوله فغادره قفزا وأخذ يجد فى السير صوب البيت حتى كاد أن يهرول .

وصعد فى المصعد وحده وهو يهز أعطافه فرحا ويدندن بأغنية مرحة ، ووقف أمام باب شقته برهة وقد ملأت رائحة الطعام النفاذة أنفه ، فأخذ يتشمم فى ابتهاج ، وسكبت فى روحه دنان النشوة .

وهم بأن يدق الجرس ولكنه آثر أن يفاجئها ، فأخرج المفتاح وأداره فى الباب فى حرص شديد ، ودخل يسترق الخطا ، واتجه إلى غرفة الطعام فألفى السفرة معدة وقد وضع فوقها حساء ومكرونة ودجاج محمر وسلطة خضراء ، فاتسعت البسمة المرتسمة على شفتيه .. اتجه إلى غرفة النوم وفتح بابها فى حرص ، وكان ينتظر أن يجدها ممدودة فى الفراش ، ولكنه وجد الغرفة خالية ، وذهب مسرعا إلى دورة المياه ، فوجد ثيابه قد غسلت ونشرت ، ووجد كل شىء منسقا فى المطبخ ، ولكنها ليست هناك ، ودار فى الشقة دورة أخرى دون جدوى ، فقد ذهبت .

وعاد إلى غرفة الطعام ونظر ، فألفى السفرة قد أعدت لشخص واحد فقط ، ووجد باب الدلسوار مفتوحا فخف ينظر فيه فلم يجد زجاجة الوسكى ولا زجاجة النبيذ ، وأسرع إلى الصوان وفتحه فإذا بالكاميرا قد اختفت وبعض النقود التى يدخرها للملمات قد ذابت ، وإذا بأشيائه

الثمينة قد ضاعت ، وإذا بضحكات ساخرة مريرة تدوى فى أذنيه .

وارتمى فى مقعدة والطعام الشهى أمامه ، ولكن نفسه عافتـه ، وجعل يتلفت زائغ البصر ، ضيق الصدر ، يتميز غيظا يكاد ينفجر من أساه .

ماجى

ميدان واسع فى أكرا تتوسطه نافورة مرتفعة ، قامت فى حوضها بعض نجوم خماسية بيضاء كبيرة وقد سلطت عليها أضواء بيضاء وحمراء هادئة ، وتصل إليها طرق المدينة المعبدة ، وعلى بعد بضعة أمتار من إحدى هذه الطرق تأتلق أضواء سينما أوديون ، وعلى بعد نفس المسافة تقريبا فى طريق آخر يصنع مع الطريق الأول زاوية حادة تتلألأ أضواء الليدو ، ثم لا شىء غير الخضرة والسماء الغائمة بسحب داكنة تنذر بهطول الأمطار فى أية لحظة ، وبعض « البنجالو » المكونة من طبقة أو طبقتين مخروطية السقف بالقرميد الأحمر .

ولو اقتربنا من مبنى الليدو لازداد المنظر وضوحا ، فعلى جانبى الطريق أشجار ضخمة من أشجار الغابة . وقد احتشدت تحت الشجرتين القائمتين أمام الليدو سيارات كثيرة من كل نوع ، من الأوستين والمارسيدس والفولكس فاجن ، وقد حملت بعضها على مقدمة سقفها مخروطا مضيئا كتب عليه « تاكسى » ، وأخذ السائقون وبعض الباعة يتسامرون ، وراح جندى يرتدى سترة زرقاء وبنطلونا أزرق غامقا وطربوشا أحمر له زر كشرابة خرج تدلت من أمامه يجوس خلال

الجموع ، وباب الليدو مصنوع من خشب غير مهذب مدهون بلون أبيض وعلى جانب الباب غرفة صغيرة واجهتها من السلك البقلاوة ، بها شباك صغير لبيع التذاكر ، ولا يفتح الباب إلا بعد أن يصدر الأمر بذلك من قاطع التذاكر .

وخلف السور الخشبى الذى به الباب تقف امرأة من البوليس النسائى وإلى جوارها جندى آخر يرقبان ما يدور فى الفناء الواسع الذى صفت فى الناحية اليمنى منه مناضد من خشب طلى باللون الأخضر وكراسى من الخشب جلست عليها شابات فى لون البن المحروق يرتدين أثوابا تكشف الصدور والأذرع والسيقان ، وقد حلقن شعورهن كالأولاد ، وتدلت من آذانهن أقراط مختلفة ، وعلى النضد أمامهن زجاجات كثيرة من البيرة ، وقلما كان بينهن رجل . وأمام المناضد حلقة رقص وفى قبالتها مرتفع مسقوف ، احتله أعضاء الجاز ، وإلى جوار ذلك المرتفع مبنى متواضع له باب صغير يقود إلى ردهة بها بار احتشدت فيه المشروبات حشدا .

وجلس إلى منضدة أمامية على حافة حلقة الرقص رجل أبيض البشرة يرتدى قميصا أبيض وبنطلونا رماديا ، أبرز ما فى وجهه شارب أصفر وعينان مضعضعتان أنهكهما كثرة الشراب وطول السهر ، وجلست معه فتاة سوداء ممشوقة القد ترتدى ثوبا أبيض مخططا بأزرق ، مكشوف الصدر ، ضيقا عند الوسط حتى إنه يحدد خصرها النحيل ، نهايته على هيئة جرس ، إنه صاحب الليدو وفتاته المفضلة .

وكان على النضد كأسان وزجاجة « هوايت هورس » وزجاجتا صودا ، وصب الوسكى فى الكأسين وخففه بقليل من الصودا ثم رفع كأسه وقرعها فى كأسها وقال :

— فى صحتك يا أفوا .

وابتسمت أفوا ولمعت عيناها ببريق السعادة ، فقد كانت تحبه حبا صادقا من سويداء قلبها ، وكانت تغار عليه غيرة تتكافأ مع حبها ، حتى إنها كانت تتمنى أحيانا أن يهجر الليدو وأن يفر معها من أكرا إلى حيث تعيش قبيلتها فى الأحراش عيشتها الطليقة البدائية .

ودوت موسيقى الجاز فى المكان ، وراح أفراد الفرقة الموسيقية يتلوون ويقصرون وهم يعزفون على آلاتهم ، وسرعان ما سرت عدوى الاهتزاز إلى الجالسين ، فراحوا يهزون أكتافهم على الأنغام ، وأخذت بعض الواقفات يهزون أرادفهن ، وجعلت إحدى البائعات التى تدور ببعض الحلوى على الجالسين ترقص وتهز كل عضلة فى جسمها فى نشوة وهى تلف بين الموائد .

وقام الشبان والشابات إلى حلقه الرقص ، وظلت الفتيات اللاتى لم يجدن شبانا يتمايلن وهن فى مقاعدهن ، فما يستطعن كبت تعشقهن للرقص ، وما من قوة بقادرة على منع اهتزاز أجسامهن إذا ما سكبت موسيقى الجاز فى آذانهن .

وقام صاحب الليدو وأفوا وأخذا يرقصان فى رشاقة ، كانا كطيفين ، ورفع يده ويدها وبعد جسمها عن جسمه ودارت دورة سريعة فانحسر

الثوب عن ساقين بديعتين فى لون الأبنوس .

وارتفع صوت المغنى :

أو هو هو هو أجومر اليه
أجومر اليه شياشالى شياكو
أجومر اليه .. أجومر اليه

وانفصل الراقصون بعضهم عن بعض وراح كل منهم يرقص وحده وكان أبرز الراقصين رجل مسن أسود الوجه أبيض الشعر يرتدى قبعة من الخوص الأبيض ، نحيل القد جدا راح يهز صدره وذراعيه المثنيتين فى نشوة ويهز أردافه التى لا يكاد بروزها يظهر وهو فى شبه غيبوبة من اللذة والانفعال ، وأفوا التى أخذ طرف ثوبها يرتفع من جهة لينخفض من الجهة الأخرى حسب ارتفاع أردافها وانخفاضها والبسمة التى توجت شفتيها واللمعة التى احتلت عينيها ، والسحر الذى لفها ، والخفة التى اتسمت بها حركتها ، كل أولئك ينم عن السعادة الفياضة بين جوانحها .

وعاد كل راقص إلى صاحبته ، والتصقت الأجسام مرة أخرى وموسيقى الجاز تنفث فيها الحرارة وتشعلها لهيبا .

وارتفعت الموسيقى وأخذت فى الارتفاع حتى صارت صخبا ، وراح النافخ فى البورى يقصر ويقصر ويرفع البورى إلى السماء وينفخ وينفخ ، والأجسام تدور وتدور وتدور ، ثم توقفت الموسيقى فجأة كأنما ماتت الحركة بعد جهد عنيف ، وعاد الراقصون إلى مقاعدهم وملء جوانحهم النشوة .

وفتح باب الليدو ودخلت فتاة بيضاء ترتدى ثوبا ناصع البياض كالثلج

محلى بدانتيلا ، شعرها أصفر وعيناها فى لون الفيروز ، وكان إلى جوارها شاب أشقر واتجهت الأنظار إلى الفتاة ، لم تكن أول فتاة بيضاء دخلت الليدو تلك الليلة ، ولكنها كانت أجملهن جميعا .

وخف صاحب الليدو إلى القادمين ، وحياهما فى ترحيب ، ثم فسح لهما مكانا وجلس معهما يحادثهما وقد طلب لهما خمرا جيدة ممتازة .

وراحت أفوا ترقب صديقها وترصد حركاته فاستشعرت الغيرة تتحرك فى أحشائها ، ولكنها راحت تطفئها معللة النفس بأن عليه أن يرحب بزبائنه ، ويا طالما رقص مع فتيات غيرها وتودد إليهن دون أن تغضب ، فإنه لا يفعل ذلك إلا مجاملة .

وارتفعت موسيقى الجاز مرة أخرى وعين أفوا على صاحبها ، فوجدته ينهض وينحنى أمام الفتاة البيضاء يدعوها للرقص ، فأطلت غيرتها برأسها وأخذت تنهسها ، وقد أخفقت فى خلع أسنانها الحادة التى كانت تمزق فؤادها .

ورقصت الفتاة البيضاء رقصا رشيقا ، وراحت تهتز فى إغراء وتدور دورات سريعة تفيض حيوية وتكشف أسرار أنوثتها الطاغية ، وتعلقت أنظار أفوا بها ، بخلجات وجهها ، بومضات عينها ، بانفراجات شفتيها الناطقة بالشهوة التى لا تخطئها عين مجربة ، بصدرها الناهد ، بأردافها المرحة ، بأنفاسها الحارة المترددة التى أحست حرها بين جوانحها ، واستشعرت صدرها يضيق وأنفاسها تنبهر حقدا .

وعادت موسيقى الجاز ترتفع ثم تصمت فجأة ، وعاد الراقصون إلى

أماكنهم وأفوا تنتظر أن يعود فتاها إليها ، ولكنه جلس هناك دون أن يلقى عليها نظرة .

كئوس تملأ وأنخاب تتبادل ، ورءوس بدأت تدور ، وزجاجات فارغة كثيرة تحمل ، وزجاجات أخرى مليئة تجلب ، وصدور دافئة بالأمل والنشوة ، وقلوب اطمأنت لإلفها بعد أن وجدته ، ولكن قلب أفوا كان وحده يمتلئ بالبغض والكراهية .

وعزفت موسيقى الجاز « هاى ليف » . إنها الرقصة الوطنية ، الرقصة المخصصة لأفوا ، وما رقصها أبدا مع غيرها منذ أن توطدت الصلات بينهما ، وراحت ترقبة قلقة متنازعة العواطف يهتف بها هاتف أنه قادم إليها ، ويسخر منها هاتف آخر ويوسوس فى صوت بغيض أنه لن يترك الليلة تلك الفتاة البغيضة التى جاءت تعكر صفوها .

ونهض وتعلقت جميعها به ، وخفق قلبها رهبة ، وتدفق الدم الحار فى عروقها ، وارتسم الجد فى وجهها ، واتسعت عيناها كأنما تريد أن تتحقق من كل ما يختلج به كيانه .

وانحنى انحناءة خفيفة يدعو الفتاة البيضاء للرقص ، ودوت فى أغوارها صرخة مكتومة كأنما سددت إليها حربة مسمومة ، وضاقت باللطمة القاسية التى وجهها إلى مشاعرها ، وبالجرح العميق الذى غار فى كبريائها ، فقامت ثائرة ، واندفعت إلى البار كالعاصفة وراحت تجرع كئوس النبيذ فى عجلة ، ثم عادت إلى حلقة الرقص ترقص وحدها .

وجعلت ترقص كما لم ترقص من قبل ، كانت كل حركة تأتيها تعبير

عن الثورة المتأججة فى أعماقها ، وراحت تبذل كل ما وسعها الجهد لتؤكد تفوقها ، وكان وجود منافستها على بعد خطوات منها يمدها بقوة طاغية ما كانت تحسها من قبل .

وانتهت الرقصة وعاد الراقصون إلى مقاعدهم ، ولكن أفوا لم تكف عن الرقص ، واستمرت تهز أعطافها وتعتصر كل ما فيها من فن متأصل ، وقد راحت تمد بصرها إلى حيث جلس صاحبها مع فتاته البيضاء .

والتفتت الأنظار إليها ، حتى عيون غريمتها تعلقت بها ونظر صاحبها إليها فمشى فى صدره كدر خفيف ، أحس أن أفوا قد أعلنت راية الثورة ، ولن تمر الليلة فى هدوء كما كان يأمل .

واستأنف الجاز العزف وأفوا وحدها فى حلقة الرقص ، وارتفع صوت المغنى :

ميكشيكابى أمينيا أمانى ميكشيكابى أمينيا
أوبى أوارى سم ميكشيكابى أمينيا أمانى

وهرع الراقصون إلى حلقة الرقص يرقصون ، وقام صاحبها وصاحبته البيضاء وطفقا يرقصان ، والتفت عيناها بعينيه مرة فقرأت فيهما غضبا وعتابا ، فزادها ذلك إصرارا على الاستمرار فى احتجاجها ، فقد أحس وجودها وبدأ يستعطفها وإن لم ينطق بعد بكلمة .

وانفضل الراقصون وراح كل يرقص وحده ، وصمتت الموسيقى ، ولم يعد هناك إلا وقع الأقدام التى تتحرك فى توافق تنبعث عنه أصوات كأنها نغم موزون ، وظل الراقصون والراقصات يهتزون على وقع

الأقدام ، واقترب منها حتى صار يمشى إلى جوارها . والتصق كتفه بكتفها ، ورنا إليها رنوة استعطاف ، ولكنها لم تأبه به ، فقد قررت فى نفسها أن تصفح عنه لو أنه عندما تستأنف الموسيقى عزفها يعود ليراقصها هى ويترك غريمتها البيضاء .

واستأنف الموسيقى ضجيجها وعاد كل راقص إلى صاحبته ، وعاد هو إلى زميلته البيضاء وتركها تتم الرقصة وحدها كما بدأتها .

وأفعمت بالغضب ، ومدتها ثورتها بوقود جديد من النشاط فاستمرت تلف وتدور وتتمايل وتهتز ، وتوقفت الموسيقى وانتهى المغنى من أغنيته ، وعاد الراقصون إلى أماكنهم ولكنها استمرت فى رقصها وحدها .

ورماها صاحبها بنظرة قاسية كلها غضب وأمر ، ولكنها استدارت لها واستمرت فى رقصها تستعرض فنونها ، وتدور فى قوة لتكشف كل ما يمكن أن ينكشف من جسمها الممشوق ، واضطرت الموسيقى إلى استئناف عزفها : « ترم تكتك تكتك تكتك ... » .

وعاود الناس الرقص ، وقام صاحبها يرقص وقد وطد العزم على ألا يأبه بها وأن يتركها تستمر فى احتجاجها حتى ينال منها التعب وترتمى على أقرب مقعد مهزومة تنتحب ، إنه لن يدللها ، وسيجعلها الليلة تفهم أنه السيد الناهى هنا .

وانقضت الرقصة وعاد وصاحبته إلى المنضدة التى جلس إليها الشاب الأبيض الذى قدم برفقة الفتاة ، وجلس هذه المرة وقد أولاها ظهره إمعانا

فى الزراية والاحتقار .

واستمرت ترقص دون أن تتوقف ، وراحت موسيقى الجاز تدق « الرول » وقام راقصون جدد و لم تقم منافستها للرقص ، كان التعب قد بدأ يتدسس إلى سيقانها وإن كانت تخفى ذلك بكئوس الوسكى التى تتشاغل بها .

وبدأت نسائم من الرضا تهب على قلب أفوا ، فقد لاحت فى ظلام نفسها بوادر انتصارها ، وشد ذلك من عزمها فجعلت تسرى فى حلقة الرقص كالطيف .

وعاد الناس إلى مقاعدهم ليلتقطوا أنفاسهم . ولكنها ظلت ترقص وحدها دون موسيقى ، وأشفق شاب عليها فقام إليها يرقص معها ، ووقف أمامها يهتز ، ودوى الجاز : تيرم .. تيرم .. تيرم .. تك ، وتقدم منها يلف ذراعه حول وسطها ويمسك يدها بيده ، ولكنها دارت دورة كاملة فى رشاقة وانفلتت منه ، ثم راحت تهز أكتافها على النغم هزات كلها رفض وإصرار .

ومر وقت طويل وقد خيم السكون على المكان ، و لم يكن ينبعث إلا صوت وقع أقدامها أو حفيف ثوبها . وتعلقت العيون بها وقد فاضت بالشفقة . وقام شاب آخر ووقف يرقص أمامها بعيدا عنها ، إنه يريد أن يمسح جرح نفسها وأن يعلنها أنها مرغوبة وأنه يدعوها لتعود معه إلى مائدته ، وظل يقترب منها رويدا رويدا وهو يتمايل معها حتى إذا ما كاد يلتصق صدره بصدرها انفلتت منه بعيدا ، وعاد هو إلى مائدته وقد

أطرق ، وظلت هي فى رقصها .

واستأنفت الموسيقى عزفها ، وخف الراقصون إلى حلقه الرقص ، وقام صاحبها وصاحبته يشاركان الناس فى رقصهم ، وارتفع صوت المغنى :

ماجى دفلك
مـا إن تـنتهى مـن لقـائى
حتـــى تسرع إلى لقـاء آخـــر .
إنها كالنحلة
تـرشف مـن كل زهــرة
ولكــن رحيقهـــا عسل
ما جى دفلك
ماجى أكرايا .

وخيل إليها أن المغنى يغنى لها وحدها ، وأن العيون المعلقة بها ترقب ماذا ستفعل ماجى الدوارة ، هل تلقى سلاحها وتستسلم أو تصر على ثورتها لكبريائها حتى يقدم إليها رجلها صاغرا أو تموت دون هذا .

وقررت أن تستمر ترقص وحدها حتى تلفظ آخر أنفاسها ، وراح الوقت يمر ، وحان موعد عودة الناس إلى دورهم فقد كانت الساعة الثانية والنصف صباحا . ولكن أفوا كانت مستمرة فى رقصها ، وما فكر أحد فى أن يغادر مكانه قبل أن يعرف النهاية ..

وهمس هامس :

ـــ أنها تنتحر .

وارتفع الهمس واتجهت الأنظار إلى صاحبها،كان مطرقا يصارع الأحاسيس المتضاربة فى أعماقه ، إنه لا يستطيع أن يلج فى العناد ، وإنه لعزيز على نفسه أن ينهزم على الملأ ، وظل نهبا لهواجسه مدة ، وأخيرا اندكت حصون مقاومته وقام وذهب إلى حلقة الرقص والعيون جميعا معلقة به .

وعزفت الموسيقى الصاخبة ، وارتفع صوت المغنى يغنى :

ـــ ماجى دفلك ..

ولم يفكر أحد أن يقوم ليرقص ، وكان الناس جميعا يرقبون أفوا وصاحبها كأنما يرقبون مصارع ثيران ذهب لينازل ثورا جموحا هائجا ، وبدأ يرقص فى هدوء ويتقدم فى حذر ، رقصه يشتد ويعنف كلما دنا منها ، وبقيا يتمايلان وكل منهما ينظر إلى صاحبه فى عتاب مدة ، وقال :

ـــ ماذا جرى ؟ .

ـــ ألا تعرف ؟ .

ـــ لا أفهم شيئا .

ـــ جرحت كبريائى ، ألم تشعر بذلك ؟

ـــ أبدا .

ـــ أهنتنى إهانة لن أغفرها لك أبدا .

فقال وهو يمد ذراعيه ليلفهما حول ظهرها :

ـــ ألا يكفى أن أختتم معك هذه الرقصة ، وتنتهى الليلة بى وبك

وحدنا ، ليمسح ذلك ما توهمت أنه إهانة ؟

فقالت له وهى مستمرة فى رقصها :

ـــ لا .. على قدر عظم الإهانة يكون الاعتذار .

ـــ أعتذر إليك .

ـــ لا . هذا لا يكفى .

والتمعت فى ذهنه فكرة فقال :

ـــ سأقدمك الليلة لصديقى العزيز لتؤنسى وحدته .

وانقشعت الغيوم التى تلبدت فى وجهها وأشرق فمها ، وتقدمت إليه وتركته يلف حولها ويشاركها فى الرقص .

وضجت موسيقى الجاز وضجت ثم توقفت فجأة ، ودوى المكان بالتصفيق ، واتجهت أفوا إلى منضدتها وأخذت حقيبة يدها وفتحتها ، ثم أصلحت الأحمر الذى كانت تطلى به شفتيها .

وتقدمت صوب المائدة التى جلس عندها الشاب الأبيض والفتاة البيضاء وهى سعيدة ، فقد برهن صاحبها عن صدق محبته لها ، فما يقدم الصديق لصديقه إلا أحب فتاة إلى قلبه لتؤنس الصديق فى وحدته ، وتبذل له من فنون الحب ما يجعل الليل الطويل يمر كطرفة عين .

فتاة من تل أبيب

هبطت إيلين من الطائرة فى مطار أكرا وحدها ، وسارت مع الجمع المنطلق إلى المبنى القائم على بعد أمتار من مهبط الطائرة وهى تحمل حقيبة من القماش كتب عليها « الطيران الإسرائيلى ». كانت بيضاء البشرة ، ممتلئة تنم الدوائر البارزة من جسمها على أنها امرأة ناضجة . يعيب وجهها أنف كبير مقوس ، ولكن الظهر العاجى العارى ، والصدر المفتوح الذى يكشف منابت النهدين ، والساقين المنسجمتين ، كل أولئك كان يجذب الأنظار ويبعدها عن الأنف المقوس .

كانت إيلين قد تعرفت فى أثناء الطريق بموظف غانى كبير ، واكتشفت أنه بعيد عن مجال نشاطها ، فلم تجد من الحكمة أن تضيع وقتها معه ، فجعلت تتحدث إليه فى تحفظ وإن أظهرت له الوداد ، فقد تحتاج إليه يوما .

وتعرفت ببعض الموظفين من الإنجليز العائدين إلى أعمالهم بعد أن قضوا إجازاتهم فى الخارج ، وتحدثت معهم فى كل شىء إلا عملها الذى قدمت من أجله فهى تعلم أن الإنجليز وإن كانوا يرعونهم ويدللونهم فى الشرق الأوسط ، فلن يتركوهم أبدا ليحلوا محلهم فى أسواق أفريقية ،

فإن أرادت أن تجد مجالا للسلع الإسرائيليه فعليها أن تعتمد على نفسها .

ودخلوا إلى مكان مسقوف ، ووقفوا عند الموظف المختص بالإجراءات الصحية ، وتقدمت منها فتاة سوداء ترتدى ثوبا أبيض وقالت فى رقة :

ــ أتسمحين لى بمساعدتك ؟

وتناولت منها شهادات التطعيم الدولية ، واتجهت إلى الموظف تملى عليه البيانات : إيلين إسحاق .. الحمى الصفراء ٩ ــ ٧ ــ ١٩٥٨ ، الجدرى نفس االتاريخ ، والكوليرا نفس التاريخ .

وتناولت منها جواز سفرها وذهبت به إلى موظف الجوازات وإيلين واقفة تقلب عينيها فى المكان .

ودنا منها الموظف الغانى وقال :

ــ سيارتى فى الخارج ، ستحملك إلى فندق الأمباسادور ، وها هو ذا السائق عند الباب ينتظرك .

ــ وأنت ؟

فقال وهو يضحك :

ــ جاء أصدقائى ليحملونى معهم ، أصروا على أن يحتفلوا بمقدمى .

وقهقه وقال :

ــ قالوا إنهم قد أعدوا لهذه المناسبة ثلاث زجاجات وسكى .

ــ وسكى فى الصباح ؟

ــ الشراب يحلو فى كل وقت .

وذهبت إلى موظف الجمرك ووقفت أمام حقيبتها ، وجـاء إليها الموظف وبياض أسنانه وبياض عينيه يأتلقان فى وجهه البنى الغامق ، وتناول منها الجواز وطفق يقلبه بين يديه وقال :

ـــ دبلوماسى ؟

ـــ لا .

ورنا إليها رنوة من طرف عينه كأنما يقـول لها : « لا تحاولى أن تخدعينى » ، وعاد يقول :

ـــ دبلوماسى ؟

ـــ لا .

وأشار إلى الحقيبة الصغيرة وقال وهو يرفع أصبعه إلى عينيه :

ـــ أستطيع أن أنظر ؟

قالت وهى تفتح الحقيبة :

ـــ تستطيع

ونظر وقال كأنما يلقى درسا حفظه عن ظهر قلب دون أن يمد يده إلى محتويات الحقيبة :

ـــ لا أوراق بنكنوت ؟ لا خمور ؟ لا شيء أبدا ؟

ـــ لا شيء أبدا .

وابتسم ابتسامة عريضة ، ثم أشّر على الحقيبتين بطباشير أخضر وما كاد ينتهى من تأشيراته حتى كان سائق الموظف الكبير ينقض كالنسر على الحقيبتين يحملهما ، وسارت خلفه ، وإذا بسيارة حمراء فاخــرة فى

انتظارها .

بداية طيبة وإن لم تكن البداية التى تبغيها .

وانطلقت السيارة فى طريق معبد جميل يشق البساط الأخضر الممتد على مدى البصر ، وقد قامت فيه أشجار ضخمة وأشجار نخيل بلا تمر ولا ثمرة ، واجتازت السيارة بعض إشارات المرور ، ثم لاحت منازل قليلة متناثرة من طبقة أو طبقتين ، وقال السائق :

ــ « البانجالو » ، منازلنا .. أهذه أول مرة تقدمين فيها إلى أكرا ؟

ــ أول مرة ، ولكننى عزمت على أن آتى إلى هنا كثيرا . بلادكم ساحرة .

وأثلج صدر السائق حتى إنه زاد فى سرعة السيارة .

ووقفت السيارة أمام فندق الأمباسادور ، وهبطت إيلين منها فإذا بها أمام فندق هائل ، طبقات بعضها فوق بعض ، وروعة فى البناء وتنسيق بديع ، وجو شاعرى خلاب .

وصعدت فى بضع درجات من الرخام ، ودلفت من الباب البللورى الكبير الذى كان أبرز ما فيه مقابض من المهوجنى على شكل رأس فيل تدلى منه خرطومه ولف إلى اليسار قليلا ليتم للمقبض انسجامه وروعته .

وسارت فى ردهة أرضها من رخام إيطالى بين البنى والأصفر معرق بعروق بيضاء وسوداء ، وفى صدر الردهة سلم رخامى مستدير ومكتب حارس الفندق ، وإلى جانبها ممران يقودان إلى المصاعد ؛ ويفتح عليهما الأبواب المؤدية إلى قاعة الطعام وإلى البار والمقهى ، وإلى حلاق النساء

وإلى حلاق الرجال وفى نهاية الممر الأيسر مكتب الاستقبال .

واتجهت إيلين إليه وكان يعمل به ثلاث فتيات وطنيات يرتدين الأثواب البيضاء ، وسيدة إنجليزية بدا الشيب يتسلل إلى شعر رأسها والتجاعيد تتجمع عند طرفى انطباق شفتيها ، وراحت إيلين تتحدث إلى السيدة الإنجليزية حديثا عاديا عن غرفتها وعن نظام الفندق ، ثم سرعان ما أدارت دفة الحديث إلى الوجهة التى تبغيها ، وقالت :

— من أكبر التجار الوطنيين فى أكرا ؟

— المصدرين أم المستوردين ؟

يهمنى أمر المستوردين .

— ألا تحددين نوع السلعة ؟

— لا يهم ما دام يستورد سلعة ما بكميات كبيرة فمن الميسور إقناعه باستيراد سلعة أخرى .

فقالت السيدة الإنجليزية فى استخفاف :

— أشك كثيرا فى ذلك يا سيدتى ، فإننا فى عصر التخصص .

— هذا أمر يتعلق كثيرا بمهارة العارض .

وكأنما لم تشأ أن تضيع وقتها فيما لا طائل تحته فقالت :

— لم تقولى لى : من أكبر المستوردين الوطنيين فى أكرا ؟

وشردت السيدة الإنجليزية وقالت :

— جوجو دووا .

— فراحت إيلين تردد فى نفسها كأنما تثبت اسمه فى ذاكرتها :

— جوجو دووا .. جوجو دووا .

واتجهت إلى المصعد حيث حمل أحد خدم الفندق حقيبتها وقبض بين أصابعه على مفتاح حجرتها .

وفتح باب الغرفة ونظرت ، وكان أول ما وقعت عليه عيناها التليفون الأبيض الموضوع على نضد قصير رخامته سوداء ، له درج واحد ورف منخفض من الرخام الأسود فوقه دفتر التليفونات .

وأغلق خادم الفندق الباب بعد أن وضع الحقيبتين على الحامل القريب من السرير ، وبعد أن تمهل قليلا لعلها تنفحه شيئا ولكنها لم تفعل ، وتمددت فى السرير بثيابها وأزيز جهاز تكييف الهواء والمروحة البيضاء فى لون التليفون يتسرب من أذنيها إلى مراكز التفكير فيها فيعوق تسلسل الأفكار التى تريد أن تتدفق .

وقامت إلى جهاز تكييف الهواء وكتمت أنفاسه ، ثم عادت وتمددت فى السرير ، ومدت يدها وتناولت دفتر التليفون وجعلت تقلب صفحاته وصوت فى أغوارها يردد :

— جوجو دووا .. جوجو دووا .

وعثرت على الرقم فمدت يدها ورفعت السماعة وطلبت من عاملة التليفون بالفندق أن توصلها بها .

وارتفع صوت خشن من الطرف الآخر :

— هالو .. هالو ..

وقالت إيلين فى صوت رقيق منغم :

ـــ أريد أن أتحدث إلى السيد جوجو دووا المبجل .

ـــ جوجو دووا يتكلم .

ـــ صباح الخير يا سيدى ، إننى سعيدة أن أسمع صوتك ، إننى قادمة الآن من إسرائيل ، وقد قيل لى هناك إن سيادتكم خير من سيأخذ بيدى ، إننى أمثل بعض الشركات الإسرائيلية وقد جئت أعرض منتجاتها على المستوردين و لم يسبق لى أن جئت إلى بلادكم الجميلة من قبل ، إن كل اعتمادى على عونكم وعلى نبلكم الذى فاض الحديث عنه فى إسرائيل .

فقال الرجل فى فرح :

ـــ أوَ تعرفوننى فى بلادكم ؟!

ـــ ليتك تفكر فى أن تزورنا لتعرف حقيقة مكانتكم .

ـــ سأفعل .. سأفعل .

ورأت أن تطرق الحديد وهو ساخن فقالت :

ـــ ومتى أستطيع أن أتشرف بزيارتكم ؟

ـــ فى أى وقت .

ـــ هل أستطيع الآن ؟

ـــ هذا تفضل وتنازل منك .. يسرنى تشريفك لى فى أى وقت .

ـــ العنوان من فضلك .. لحظة أرجوك .

وفتحت حقيبة يدها وأخرجت قلما وورقا صغيرا فى لون الورد وراحت تكتب .

« رينج رود » ثم قالت وهى تبتسم :

— إننى الآن فى الطريق إليك .

ونهضت إلى الباب المؤدى إلى الحمام ، ووقفت أمام المرآة المثبتة فوق الحوض تعيد تصفيف شعرها وطلاء شفتيها بالأحمر .

وهبطت مسرعة وهرعت إلى الباب وطلبت تاكسيا وإذا بخمس سيارات تتنافس فى الوصول إليها ، وتغاضى الرجل الأسود الذى يرتدى بذلة بيضاء وقبعة من نفس قماش بدلته الواقف عند الباب عن كل السيارات المتنافسة ، وفتح سيارة بينه وبين سائقها ذى اللحية الطويلة صلات ، ودخلت إليها وهى تقول :

— رينج رود .

وانطلقت السيارة فى طرق هادئة كأنها ثعبان أسود تمدد فى غابة ، ثم وقفت أمام بيت من طبقتين ، وغادرت إيلين السيارة ووقفت برهة تتلفت فلم تجد إلا بيوتا متباعدة ، ومجرى لمياه الأمطار على جانبى الطريق ، وامرأة وطنية تدق الموز الكبير فى هاون من الخشب وأمامها موقد عليه إناء أسود به زيت ، تأخذ من الهاون بأصابعها وتقرص ما أخذته ثم تلقى به فى الزيت ، فيصبح أشبه بأقراص الطعمية .

وتقدمت إلى « البانجالو » الذى كان كالبيوت الإنجليزية فى الريف ، ودقت جرس الباب ، ففتح شاب أسود يرتدى قميصا كاكيا وبنطلونا قصيرا من قماش القميص ، وفى رجليه نعال ، ووقف ينظر كأنما يسألها عن بغيتها فقالت :

— عندى موعد الآن مع السيد جوجو دووا ، إنه ينتظرنى .

وقادها الخادم إلى ردهة مؤثثة برياش إنجليزى فاخر ، مناضدهـا ودواليبها محلاة بزخارف ومقابض من فضة خالصة ، وزينت حيطاتها بلوحات فنية ، وقال الخادم وهو يشير إلى مقعد وثير :

ـــ تفضلى .. سأبلغه .

وغاب الخادم قليلا ، ثم هبط فى الدرج النازل من الطبقة الثانية مسرعا وهو ينحنى فى أدب فياض :

ـــ تفضلى يا سيدتى .

وصعدت فى الدرج خلفه ، ودخلت غرفة الاستقبال ، وما كادت تستقر فى مقعدها حتى أقبل السيد جوجو دووا ، طويل القامة ، مفتول العضل ، بشرته سوداء داكنة ، وشعره مفلفل ، حليق الشارب واللحية ، يلف جسمه فى ثوبه الأفريقى الأصفر البنى المخطط وقد تعرت ذراعه اليمنى ونصف صدره .

وقال جوجو مرحبا :

ـــ هذا تفضل كبير منك يا سيدتى إيلين أن تكونى البادئة بالزيارة ، لو كنت أعلم لسعيت إليك .

وتصافحا وجلسا ووضعت ساقا على ساق ، وجعلت تتحدث وهى ترصد عينيه اللتين كانتا تتجولان فى مفاتنها ، وتحدثت طويلا عن مهمتها وعن الشركات التى تمثلها ثم قررت أن تتجه إلى هدفها سريعا ، وأن تضع قدمها على أول الطريق الذى يقودها دائما إلى انتصاراتها ، فراحت تتلفت فى أرجاء المكان ، وقالت همسا وهى تتعمد أن ينحسر الثوب عن



عندى موعد الآن مع السيد جوجو دوڤا ، إنه ينتظرنى

جزء من فخذها :

ـــ متزوج ؟

فقهقه وهو يرمق الأخدود الغائر بين نهديها وقال :

ـــ من كان مثلى فقلما يتزوج ، وإن كان دائم الزواج .

وعادت ضحكته الطليقة تجلجل فى الغرفة ، وقالت كأنما تداعبه :

ـــ إذن فليس هناك حائل يمنعنا من الزواج .

فقال وهو يقهقه :

ـــ وهل كان وجود زوجة يمنعنا من الزواج ؟ إن أغلب أصدقائى متزوجون ومع ذلك يمارسون الزواج كل ليلة .

واهتز جسمه جميعا وهو يضحك ، والتمعت عيناه ببريق الرغبة ، وجعلت ترقبه وهى لا تدرى أهو فى الأربعين أم فى الستين فمن العسير على العين أن تفضح سن الزنوج .

واقترب منها وقال :

ـــ وسكى ؟ نبيذ ؟ أم شراب خفيف ؟

فقالت وهى تبتسم :

ـــ نؤجل الشراب قليلا .

فقال وهو دائم الضحك :

ـــ نؤجل أى شىء إلا الشراب .

ونادى على الخادم وطلب منه شرابا كثيرا .

واعتدلت إيلين كأنما تتأهب لإلقاء شىء هام ثم قالت :

ـــ أين يمارس الفتيات الحب فى أكرا ؟

ـــ فى كل مكان ، كما يمارس الحب فى أية مدينة أخرى .

وأشرق وجهه بابتسامة عريضة ، وقالت دون أن تطرف لها عين :

ـــ أقصد هل هناك حديقة عامة يمكن أن يمارس فيها الحب بحرية ؟

ـــ الفتيات الفقيرات يمارسن الحب فى أكشاك على الشاطئ .

ـــ هذا منطق جميل ، سحره فى بساطته .

وشردت قليلا تفكر فى انقضاضتها التالية ، ولكنه كان أسرع منها ففتح لها الطريق ، قال :

ـــ أملك كشكا بديعا على الشاطئ ..

فقالت وهى تضحك ضحكة ناعمة سرت كالكهرباء فى جسمه :

ـــ تمارس فيه الحب ؟

فقال فى بساطة :

ـــ أحيانا ..

ثم قال :

ـــ ما رأيك فى أن نمضى يومنا هنا ؟

فقالت فى تملق :

ـــ أفكارنا واحدة ، ولكن ما من رأى أهم بإبدائه إلا وتسبقنى إليه .

وخرج يتأهب للانطلاق معها إلى الشاطئ ، وفتحت حقيبة يدها وأخرجت أحد العقود التى أعدتها قبل قدومها ، وراحت تراجعه وهى راضية ، فالثمرة أينعت وحان قطافها .

وانطلقت السيارة بهما وعادت تتحدث عن الأعمال والصفقة التى تود إتمامها ، وكانت كلما أحست أن الضيق أخذ يتسرب إليه تداعبه أو تميل برأسها على كتفه فتنقشع السحب قبل أن تتجمع فى صدره .

وبلغا الشاطئ وهبطا من السيارة ، فإذا بثلاثة صفوف من « الكبائن » قام بعضها على قوائم من الخشب وبعضها على قوائم من الخرسانة ، وقد نمت بالقرب من الشاطئ أشجار جوز الهند ، وفى طرف بعيد من هذه الكبائن بنيت أكشاك من الحصير والخيزران ، جلس عندها على الأرض فى صف طويل رجال ونساء يتعاونون على سحب حبل فى نهايته قارب بعيد على الشاطئ ، قالت إيلين :

ـــ يتعاون كل هؤلاء الرجال والنساء على جر قارب صغير ؟

فضحك جوجو وقال :

ـــ القارب يطرح الشباك ، وهؤلاء يتعاونون على جذب الشباك المليئة بالأسماك . إنهم فى بعض الأحايين يعجزون عن سحب الشباك بما فيها فيطلبون من الموجودين على الشاطئ أن يعاونوهم على جذبها .

وغمغمت إيلين فى طمع :

ـــ ليت شباكى تمتلئ فى يسر كشباكهم .

وقال جوجو .

ـــ ماذا تقولين ؟

فقالت وهى تدنو منه :

ـــ كنت أعجب من نفسى ، من كان يصدق أننى سأقف يوما على

شاطئ هذا المحيط ؟

فقال وهو يلتهم بعينيه لحمها البض العارى :

ــ أشياء كثيرة لا يمكن أن يتصورها الإنسان قبل أن تقع .

وقادها من يدها إلى « كابينته » .

وكانت تطل على الشاطئ مباشرة فى وسط الكبائن كأنها واسطة عقدها ، تميل فوق سقفها شجرة جوز هند كأنما تحدب عليها ، وأمامها ثلاث شجرات جوز هند كأنما وقفت لتحرسها ، وصعدا فى درجات ثلاث ، وقبل أن يتجها إلى الباب أقبلت فتاة تحمل برتقالا وجاءت أخرى تعرض موزا ، والتفت جوجو إلى إيلين وقال :

ــ هل أكلت موزا مشويا ؟

ــ لا .

ــ هذا أشهى ما أحبه . إنه لذيذ ، ستذوقينه بعد أن نبدل ثيابنا .

وأمر الفتاة أن تشوى بعض الموزات ، ودخلا إلى « الكابينة » وأغلقا الباب خلفهما .

وراحت إيلين تخلع ثيابها فى ثقة وهو يحملق فيها مبهور النفس زائغ البصر ، تتدفق دماؤه فى عروقه كلهيب نار ، ووقفت شبه عارية ، وسال لعابه وتحرك ليضمها إليه ، ولكنها اتجهت إلى حقيبتها الموضوعة على المقعد الخشبى العريض الطويل الذى لم يكن فى « الكابينة » غيره ، وفتحتها وأخرجت منها العقد والقلم ، واتجهت إليه وقالت فى رقة كاد يذوب لها :

ــ ألا توقع ؟

ــ ألا نؤجل ذلك الآن ؟

ــ لا أستطيع أن ألهو ورأسى مشحون بالعمل ، بالله أرحنى حتى أسعد بهذا اليوم الذى قلما يجود الزمن بمثله .

ووقع مسرعا ليزيل تلك الورقة التى تحول بينه وبين هنائه ، وعادت إلى الحقيبة ووضعت فيها العقد فى حرص ، ثم سلمته جسدها وذهنها يفكر فى طريقة اصطياد فريستها الثانية .

وأرخى الليل أسجافه وهى فى غرفتها فى الفندق ممددة فى سريرها ، وقد صوبت ناظريها إلى المروحة التى كانت تدور فى السقف دون أن تحفل بها ، كانت مشغولة بالأفكار المتدفقة فى رأسها .

وارتدت ثوبا مكونا من قطعتين ، القطعة العليا بيضاء مخططة بخطوط عرضية زرقاء تكشف كل الظهر والصدر حتى منتصف الثديين ، والقطعة السفلى على هيئة جرس وفى وسطها حزام من جلد أحمر ، وتدلى من أذنيها قرط طويل جدا حتى كاد يمس كتفيها .

وهبطت إلى الردهة ، وغادرت المصعد واتجهت إلى باب اليمين ودخلت ووقفت تنظر ، فألفت مناضد منتشرة فى فناء أمام أشجار الغابة جلس إليها بعض البيض وزوجاتهم وأولادهم ، فراحت تتقدم صوب البار .

ووقفت تدير عينيها فى المكان : بار على يمين الداخل ، ومقاعد عالية أمام الباب ، ثم بعض المناضد والكراسى وبيانو ، وفاصل من خشب

مفرغ يفصل بين البار وبين قاعة أخرى بها كراسى من الخيزران على شكل نصف كرة محمولة على قوائم من الحديد ، ومناضد منخفضة ، وسجاجيد خضراء وطفاء .

ولمحت رجلا أسود قصير القامة جالسا إلى البار وحده وأمامه زجاجة وكأس فتقدمت نحو البار وجلست على المقعد المرتفع المجاور له وطلبت بيرة ، وقبل أن يعود الواقف خلف البار بما طلبت كانت قد التفتت إلى جوارها وقالت :

— يخيل إلى أننا التقينا فى سويسرا من قبل !

فقال وهو يبتسم :

— لم يكن لى شرف زيارة سويسرا .

— لابد أننا التقينا فى باريس .

— لم يكن لى حظ زيارتها .

— ولكن شكلك ليس غريبا عنى .

— إننى كنت فى لندن ، هل زرتها ؟

— لا ، ولكننى مشتاقة إلى سماع أخبارها .

وانتقلا إلى القاعة البعيدة عن البار ، وغاصا فى كرسيين من الكراسى الخيزران التى كانت على شكل نصف كرة ، وطفقا يتجاذبان أطراف الحديث وهى تدير دفته فى مهارة ليوصلها إلى مرماها ، واستدرجته حتى قال :

— وماذا ترغبين فى مشاهدته فى أكرا ؟ .

— أتمنى أن أرى حفلة زفاف .

فقال وهو يضحك :

— غدا الأحد وهو يوم حافل بالزواج ، وسأكلف أحدا أصدقائى هنا باتخاذ كل ما يلزم لنحضر غدا حفلة عرس ، آه لو كنا فى كوماسى لزوجت أحد أتباعى الساعة وأقمت له حفلة باهرة إكراما لك .

فقالت وهى شاردة كأنما تحلم :

— ألذ ما فى الوجود أن ينصهر رجل وامرأة ويصبحا شيئا واحدا .

فقال وهو يضحك :

— إننى لا أوافق على هذا الانصهار أبدا وإن كنت من أشد أنصار الاندماج .

— وهل هناك فرق بين الانصهار والاندماج ؟

— الانصهار هو أن أن يفنى كل من هو وهى ويصبحا شيئا جديدا ؛ أما الاندماج فهو اتصال إلى مدة يتبعه انفصال ، ثم عودة إلى الاتصال فالانفصال وفيه يحتفظ كل بذاته .

ولم تفهم فلسفته ولا ما كان يحاول شرحه ، ولم تشأ أن تضيع وقتها فى سفسطة لن تؤدى إلى شىء فقالت :

— كنت أقصد الاندماج الذى تتحدث عنه .

— آه .. هذا جميل .. هذا جميل .

ثم اعتدل وقال :

— قلت لك إننى من كبار تجار الماس فى كوماسى ، وإننى ما قدمت

إلى أكرا إلا لمقابلة بعض شركائى ، ومن حسن الحظ أن فى غرفتى بعض قطع الماس ، فهل لك رغبة فى مشاهدتها ؟

— والله لقد هممت أن أطلب ذلك .

ونهضا وطفقت تحدثه عن الصفقة التى تود عقدها معه وهما فى طريقهما إلى غرفته ، وأغلقا الباب خلفهما ، وكانت ليلة .

وانقضت الأيام السبعة التى كان مقررا أن تمكثها إيلين فى أكرا ، وحان موعد رحيلها فأقبلت إلى الفندق سبع سيارات لحملها إلى المطار ، وهبطت إيلين وأخذت تصافح الرجال السبعة ، وحملت حقائبها التى كثرتها حرارة الجو إلى السيارات ، وذهبت هى إلى السيارة الحمراء الفاخرة ، سياره جوجو دووا ، فقد كان صاحب الفضل لأنه أول من وقع .

وصعدت إلى الطائرة ، وما إن احتلت مقعدها حتى فتحت حقيبة يدها واطمأنت إلى وجود العقود السبعة التى نجحت فى إبرامهـا ، وضمت الحقيبة إلى صدرها فى فرح ، ونظرت من النافذة ، وأخذت تشير لهم بأصبعها وترسم به نصف دائرة فى الهواء دلالة على أنها ستعود وتعيد الكرة ، وهجس هاجس فى نفسها يوسوس :

— ولكن ليس معكم ، بل مع فرسان آخرين .

مؤلفات الأستاذ عبد الحميد جودة السحار

- أحمس بطل الاستقلال
- أبو ذر الغفارى ترجم إلى الاندونيسية
- بلال مؤذن الرسول
- فى الوظيفة (مجموعة أقاصيص)
- سعد بن أبى وقاص
- همزات الشياطين (مجموعة أقاصيص)
- أبناء أبى بكر الصديق
- فى قافلة الزمان (رواية)
- أميرة قرطبة (قصة)
- النقاب الأزرق (قصة)
- المسيح عيسى بن مريم
- أهل بيت النبى
- محمد رسول الله

تأليف : مولاى محمد على

ترجمة بالاشتراك مع مصطفى فهمى

- قصص من الكتب المقدسة (مجموعة أقاصيص)
- صدى السنين (مجموعة أقاصيص)

ترجمت إلى الإندونيسية

- حياة الحسين

- الشارع الجديد (رواية)
- وكان مساء (قصة)
- أذن وسيقان (قصة)
- المستنقع (قصة)
- ليلة عاصفة (مجموعة أقاصيص)
- الحصاد (رواية)
- جسر الشيطان (قصة)
- النصف الآخر (قصة)
- السهول البيض (رواية)
- أم العروسة (قصة)
- قلعة الأبطال (قصة)
- وعد الله وإسرائيل
- عمر بن عبد العزيز
- هذه حياتى
- الحفيد
- ذكريات سينمائية
- كشك الموسيقى
- خفقات قلب
- صور وذكريات
- الإسراء والمعراج
- القصة من خلال تجاربى الذاتية
- عدو البشر
- أبطال الجزيرة الخضراء
- النمر

— الله اكبر

— ثلاثة رجال فى حياتها

— مسجد الرسول

— فات الميعاد

— آدم إلى الأبد

— العرب فى أوربا

— الدستور من القرآن العظيم

محمد رسول الله والذين معه

فى عشرين جزءا

رقم الإيداع ٢٠٠٥
الترقيم الدولى ٠ — ٣٤٤ — ٣١٦ — ٩٧٧